روايات عبير

القصر المحترق

WWW.REWITY.COM

مرموريـة

Linda HARPER

N° 658

روايات عبير

جزيرة يونانية صغيرة،
غارقة في الشمس، مسكن فاخر.
يبدو أن الكل اجتمع من أجل إسعاد الثنائي
الذي يقضي هناك شهر العسل. ومع ذلك الكل زائف.
هل يسعى حقا زوج "أليس" المدعو "زافييه" إلى قتلها؟
وهل الفتاة تكره هذا الرجل الجذاب، أم أنها أحبته؟
لم تكتشف الحقيقة إلا ذات ليلة جهنمية
تحيط بها الألسنة النارية.

www.rewity.com

ثمن النسخة

لبنان	٢٥٠٠ ل.	قطر	٨ ريال
سوريا	٧٥ ل.	مسقط	[illegible]
الأردن	١ دينار	مصر	[illegible]
السعودية	٨ ريال	المغرب	[illegible]
الكويت	٧٥٠ فلس	ليبيا	[illegible]
الإمارات	٨ دراهم	تونس	2.5 دينار
البحرين	٧٥٠ فلس	اليمن	٢٥٠ ريال
U.K.	2£		

ISBN 9953-443-86-6
9 789953 443867

الغلاف الأمامي

هبطت الثروة ومعها المنقذ من الأزمة المالية. وهبطت الثروة ومعها مشاكل ومتاعب لا حصر لها. وتوالت الأحداث، في عرض شيق لهذه القصة العاطفية الاجتماعية. تصفحها -عزيزي القارئ- واستمتع بها، وبخاتمتها القيمة.

www.rewity.com
مـــر مـــوريـــة

شخصيات الرواية

"بونو" : محام "موثق".

الآنسة "أليس" : زبونة.

السيد "زافييه" : ابن عمها.

"مادلين دي بونتيه" : والدة "أليس" تعاني ضعف الإبصار.

"جوزيف" : حارس أملاك العمة العجوز.

الآنسة "إميليان بونتيه" : صاحبة الوصية.

"إيتارك" : خادم القصر بالجزيرة.

"جرازياني" : كونتيسة.

الفصل الأول

تنحنح الأستاذ "بونو".

كان يبدو مرتبكا إلى حد جعل "أليس" -على الرغم من كل متاعبها- تعجز عن كتم ابتسامة.

كانت الفتاة الجالسة في مواجهة الموثق المسن رائعة الجمال: كان شعرها الأشقر ذا انعكاس فضي، مضموما على هيئة شينيون على عنقها، مظهرا جمال وجهها وعينيها. كانت عيناها رائعتين من حيث لونهما النادر واتساعهما وأيضا بما لهما من حيوية. عينان تفيضان سرورا، حزنا أو فضولا..

إنهما في هذه اللحظة ينظران في مكر إلى السيد "بونو". كان هذا الأخير مضطربا على مقعده، ينظر من حين إلى آخر في ساعته ثم يتحرك من جديد متمتما لنفسه أكثر من أن يكون لزبونته:

-أنا لا أفهم.. لا، لا أدرك.. كان ينبغي له أن يكون هنا. إنه شخص قصير وبدين مقدام، مريح في المعاملة، ذو نظرة بريئة، وكان شعره حريريا أبيض.. هكذا كان يبدو هذا الموثق الذي عزم أخيرا على التوجه بالكلام إلى الفتاة التي يعرفها معرفة جيدة:

-لقد اضطررت يا ابنتي العزيزة إلى الانتظار شهرين لكي أقوم بفتح هذه الوصية؛ لأني وجدت صعوبة في مقابلة الوارث الآخر؛ لأنه في أعماق "أستراليا".

رفع ذراعيه القصيرتين نحو السقف:

- "أستراليا".. تخيلي.

نظرت إليه دهشة في عمق؛ لذلك لقد تم استدعاؤها من أجل قراءة وصية.

إن خطاب محامي الأسرة العجوز الذي يطلب منها ان تمر على مكتبه، لم يشر بشيء إلى الموضوع. إرث.. خفق قلبها بينما كان الأستاذ "بونو" يواصل:

-أخيرا، استلمت منذ أربعة أيام برقية من السيد "زافييه دارتيه" تفيد بانه سوف يأتي إلى المكتب في الساعة الثالثة؛ بناء على ذلك أرسلت لك الخطاب وها هي الساعة الثالثة والربع ولم يصل.

ارتبك من جديد وقد تملكه الضيق لهذا التأخير غير اللائق.

غير أنه لم تعد لـ"أليس" رغبة في الابتسام. تُرى عمن سيكون هذا الإرث؟ هكذا سالت بنبرة خجل.

نظر إليها السيد "بونو" دهشا:

-عن عمتك الكبرى.. ألا تعلمين أنها قررت ذلك منذ ثلاثة شهور وقد بلغت وقتئذ عامها الرابع والتسعين؟ عمر جميل!

هكذا أضاف في إعجاب.

أردفت الفتاة:

-يا إلهي لا. كنت أظنها قد توفيت منذ زمن بعيد. هل تعلم أني لم أرها في حياتي سوى مرتين وهذا عندما كنت طفلة صغيرة؟

-آه حقا. تذكر الأستاذ المسن.

-إنها عمة والدك ولم تكن لها محبة نحو والدتك. هذا بالإضافة إلى أنها أصيلة.

حك رأسه بهمة..

-إنسانة أصيلة حقا. لم أر في حياتي العملية كموثق مثل هذه الوصية.

ثم أضاف في نبرة حزينة:

-إنه القانون، لا يجوز أن تفتح الوصية إلا في وجود كل الورثة؛ لذلك وجب انتظار ابن عمك.

بذلك انتقلت الفتاة من دهشة إلى أخرى:

-ابن عمي؟ لم يسبق لي سماع ذلك.

مرة أخرى، رفع المحامي ذراعيه القصيرتين نحو السقف.

-ولا أنا، حتى ذلك اليوم الذي أملت علي فيه الآنسة "دي بونتيه" هذه الوصية. ومع ذلك، كان كل أفراد أسرتك يعتبرون من زبائن والدي.

تمتمت الفتاة في أسى:

-أسرة، لم يعد يتبقى منها سوى عدد قليل. كنت أظنني آخر سليلة.

-إن ابن عمك "زافييه" هو أصغر حفيد لأخت عمتك الكبرى، هكذا وضح السيد "بونو"، على ما أعتقد توفيت عن عمر يناهز الخامسة والعشرين. أي في نهاية القرن الماضي.. ولا دهشة في أنك لم تسمعي عن هذا الفرع الجانبي من العائلة.

ساد صمت قطعه الأستاذ "بونو" في حدة:

-وصية!.. كم قاومت.. هذه الوصية.. صدقيني، يا ابنتي الصغيرة. لكن هذه السيدة المسنة -سامحها الله- كانت ذات سلطان لا يقهر.. وأخذ يردد ذلك في ثورة.

تطلع مرة أخرى إلى ساعته وتنهد:

-أخشى أن أكون قد أزعجتك بلا مبرر يا ابنتي. إن لم يحضر ابن عمك فسنضطر إلى تأجيل قراءة هذه الوصية.

ظلت "أليس" حائرة: ترى ماذا ورثتها هذه العانس التي لا تذكرها جيدا؟ إنَّ ما كانت تذكره على نحو أفضل هو قصر الأسرة، حيث كان والدها قد اصطحبها مرة أو مرتين، والصالون

الفسيح، حيث كانت قد استقبلتهما الآنسة "دي بونتيه"، مهيبة، على رأسها وشاح يغطي جزئيا شعرها الأبيض وقفاز أسود يكشف عن أطراف أناملها. وإذ كانت وقتئذ طفلة صغيرة، تأثرت لنظرات تلك السيدة المسنة. نظرات قاسية مازالت تذكرها. وكانت قد غفلت عن هذه الذكريات منذ وفاة والدها.

نهض الموثق:

-الرابعة إلا عشر دقائق.. أنا لا أحتمل انتظارا أكثر من ذلك، آه وإذا بشخص يقرع الباب ويقطع كلماته.

وارب الباب كاتب محام في مثل عمر السيد "بونو"، نحيف بقدر ما للمحامي من بدانة.

تمتم في احترام:

-لقد وصل السيد "زافييه دارتيه"، يا أستاذ.

-آه! هكذا صاح الموثق.. حسنا.. مازال هناك وقت. دعه يدخل! لكن-في عصرنا- كانوا لا يدعون فتاة أو محاميا مسنا يعاني الانتظار.

سمع صوت رجل من خلف الفتاة يقول:

-أقدم اعتذاري يا أستاذ. إذ إنه لا دخل لي في هذا الخطأ: لقد هبطت بي الطائرة في مطار "مارسيليا" بتاخير ساعتين! صدقني لقد عملت كل ما في وسعي حتى أتواجد في "إيكس" في الميعاد.

وقد دهشت الفتاة، التفتت.

كان يقف أمام الباب رجل في الثلاثين من عمره ذو وجه برنزي يظهر لون العينين الأخضر. وكان لشعره الكستنائي انعكاسات ذهبية، ترجع بلاشك إلى أشعة الشمس، كان كل ما لهذا الرجل ذي القوام الفارع، يعكس قوة الطابع الذي اعتاد المقاومة، لكنه

أيضا قادر على أن يتحكم.

"مغامر"، هكذا فكرت "أليس" التي تذكرت أنه وافد من "أستراليا". لكن -هكذا أضافت- على الرغم مما يبدو عليه "زافييه" من رشاقة بدا لها عند أول نظرة أنه ثقيل الظل، غير أنها أضافت، وجب الاعتراف بأنه جذاب، غير مفتقر إلى الأصل الرفيع.

لمحت أنه ينظر إليها في فضول واضح. هز حاجبيه بخفة وكأنه دهش.

"لاشك -هكذا فكرت "أليس"- في أنه اعتقد هو أيضا أنه الوريث الوحيد".

ومع ذلك -بعد أن أشار المحامي إلى "زافييه دارتيه" بالجلوس، تناول من أحد الأدراج مظروفا مغلقا بالشمع الأحمر.

قال في حزم:

-مادام الوارثان هنا، أستطيع إذن قراءة وصية الآنسة "دي بونتيه" المتوفاة في قصرها في ٣ شباط "فبراير" من هذا العام، بصفتها عمة للوالد. وهذا لكل منهما.

وقع نظر الشاب من جديد على الفتاة.

أردف بصوت خافت:

-كنت أجهل أن لي ابنة عمة و.. بمثل هذا الجمال!

-هس، هس، هكذا أمر المحامي بنبرة مدرس صارم يؤنب تلميذا ثرثارا.

فتح المظروف، أخرج منه ورقة، ثم سلك صوته. وبدأ يقرأ:

"أنا "إميليان دي بونتيه" في كامل قواي البدنية، والعقلية، أوصي بثروتي كاملة بانصبة متساوية لكل من ابني أخوي"

توقف الموثق، تناول نظارته و-ناظرا إلى الشابين الجالسين

أمامه- علق:

-وجب أن أحدد بأن هذه الثروة-أملاك وأثاث وعمارات- قدرت بمائة مليون سنت، أي ثلاثة ملايين فرنك لكل منكما.

شعرت "أليس" بأن قلبها توقف. لم يخطر لها على بال ولا حتى في أحلامها، أن السماء سوف تشفق عليها ذات يوم، وتمنحها مثل هذه الثروة. "يا إلهي.. هكذا فكرت لقد أنقذت ماما. الآن أستطيع أن أعالجها.."

*****

كانت "أليس" قد فقدت والدها وهي في عامها العاشر. ولها عنه ذكرى أنه رجل متميز، فارع، مرح و.. الدموع التي ذرفتها والدتها من أجله.. لاعب قمار محترف، محب للنساء لم يترك عند وفاته شيئا من ثروته. فما كان من والدة "أليس" إلا أنها -في شجاعة- نزلت إلى ميدان العمل؛ إذ إنها كانت قد حصلت على ثقافة فتاة مجتمع، ولم تتمكن من الحصول إلا على أعمال الاختزال، ذات الأجر الضئيل الذي قضى على صحتها وعينيها.

في سن الأربعين، كانت "مادلين دي بونتيه" تبدو أكبر من عمرها بعشر سنوات على الأقل. منذ عدة شهور -دون أن تخبر ابنتها بالأمر لكي لا تزعجها؛ لأنها تلميذة نابغة تقوم بدراسة القانون- شعرت السيدة البائسة أن نظرها يتضاءل من يوم إلى يوم.

ثم-قبل الآن بشهر- اضطرت إلى الإفصاح بالحقيقة إلى "أليس": أصبحت غير قادرة على قراءة الأعمال التي كانت مكلفة بها على الرغم من النظارة والعدسات المكبرة. وكان هذا العمل هو

مصدر رزق للسيدتين. وللأسف قد لحقها ذلك قبل أن تتم "أليس" دراستها وتقوم -بدورها- على إعالة والدتها!

هذا بالإضافة إلى أن الطبيب المعالج لوالدتها كان قد أنذر الفتاة:

-لقد أصيبت عينا والدتك بمرض نادر يحتاج إلى علاج غال. وليس من حقي أن أخفي عنك هذا الأمر: خلال ستة شهور ستكون والدتك ضريرة تماما.

وأمام يأس "أليس"، أضاف:

-أعلم أن أحد زملائي الأمريكيين قد تخصص في هذا النوع من المرض. وهو يقوم بإجراء العملية بالليزر، وأعاد البصر لأشخاص عديدين كانت لهم نفس إصابة والدتك.

ثم أضاف طبيب العيون:

-للأسف إنه يقوم بذلك في "فيلادلفيا" ويرفض القيام بأي عملية خارج عيادته.

كما أن الطبيب كان قد لاحظ هندام الفتاة المتواضع، ثم كان قد ختم في تردد:

-إذا تمكنت من الحصول على المبلغ اللازم للسفر والإقامة في العيادة الأمريكية -من الآن وخلال شهرين- فسوف أخبرك بلا تردد بالقيام بهذه العملية. إن في حالات السيدة "بونتيه" -عدا ذلك- وهي شابة وبصحة جيدة، نسبة النجاح تقدر بثماني حالات من عشر حالات.

سألته الفتاة حينئذ في خجل:

-وما هي النفقات اللازمة لذلك يا دكتور بما فيها السفر والعلاج؟

-حوالي خمسة وعشرين ألف فرنك يا آنسة.

مليونا فرنك. أين كانت ستعثر عليها "اليس"، في حين أنها لو فكرت فيما يلزم لإعاشتهما هي وأمها، كان عليها أن تتخلى عن دراستها وتجد عملا قبل نهاية هذا الشهر.. أي عمل كان!!

ولم تكن الفتاة قد أخبرت والدتها بما أفصح لها به الطبيب.

وكانت في تلك الليلة قد حبست دموعها: سوف يحكم على السيدة "مادلين دي بونتيه" بعدم الرؤية؛ لذلك شعرت الفتاة التي كانت تحب أمها، باليأس الشديد، بقدر ما هي الآن تعلم أن هناك فرصة لإنقاذها. لكن هذه الفرصة بعيدة المنال..

وكانت حينذاك قد استلمت الفتاة خطاب المحامي.

*****

"ثلاثة ملايين قديمة.. ستتمكن ماما من السفر إلى أمريكا، وسوف تُجرى لها العملية. آه. شكرا لك وحمدا جزيلا يا إلهي.. شكرا لك أيتها العمة التي لا أعرفها جيدا ومن أنقذتنا بكرمها.."

لا إراديا، انفرجت أسارير الفتاة عن ابتسامة مشرقة، وبدت السعادة على وجهها.

وبينما هي غارقة في الأفكار، لم تشعر بهذه النظرة الفاحصة الساخرة إلى حد ما التي وجهها إليها "زافييه".

غير أن الموثق –بعد أن مسح نظارته وتنحنح من جديد– استطرد بنبرة أقل وضوحا وقد يبدو فيها الضيق، قراءة الوصية:

".. إن هذه المنح مرتبطة بشرطين. في حالة رفض ابن ابن أخي أو بنت ابن أخي الآخر، يؤول الإرث بأكمله إلى بيت الأيتام "نوتردام دي لازاريت".

مرة أخرى توقف المحامي لكي يعلق على هذه الفقرة.

قال وفي صوته نبرة أسف وحزن، محددا وهو يلتفت خاصة نحو الفتاة التي بدت الدهشة على وجهها:

–إن إلزامي بكتابة هذه الشروط لم تتم مناقشته. وكما أخبرتك منذ لحظات، عبثا حاولت إثناء زبونتي عن قرارها. ولم أتمكن أبدا من ذلك..

ثم عاود القراءة بصوت يزداد ترددا:

"أول الشرطين هو أن كلبي "يوبو" يصبح موضع اهتمام من أولاد أبناء أخي وعليهم أن يحتفظوا به وأن يعتنوا به في حنان حتى يموت..

وكان ذلك أقوى من "اليس". دفعت هذه السطور الأخيرة بـ"اليس" إلى الضحك بطريقة عصبية. إذا كان الأمر يتلخص في الاحتفاظ بكلب فهو أمر بسيط، بقدر ما أنها تعشق الحيوانات المنزلية.

وحتى "زافييه" –وكان حتى هذه اللحظة يحتفظ بوجه خال من أي تعبير– خرج من حالة الجمود التي كان عليها.. وابتسم.

"الشرط الثاني –هكذا واصل السيد "بونو" –هو أني أرغب في ألا تتسرب أملاك الأسرة؛ لذلك أحتّم أن.."

توقف الموثق، تنهد وأخيرا قرأ ببطء:

"أحتّم أن يتزوج "زافييه دارتيه" من ابنة ابن أخي "اليس دي بونتيه".

الفصل الثاني

لو أن الرصاص سقط في مكتب المحامي، ما كان أذهل "أليس" كما حدث لها عند سماع آخر جملة نطق بها رجل القانون.

بذلك -فجأة- انهارت كل الآمال التي عقدتها خلال هذه الدقائق القليلة. "على الرغم من ذلك، أنا لا أستطيع الزواج من شخص غريب لا أعرف عنه شيئا". هكذا فكرت في يأس.

ثم تذكرت والدتها كما تركتها قبل ذلك بساعة: تتحسس بيدها لكي تعثر على شيء ما موضوع على المائدة وهي تقول بنبرة يائسة:

-يا عزيزتي، أصبحت أرى أقل يوما بعد يوم..

وكان عليها إزاء هذا الوضع، أن تبذل أقصى جهدها حتى لا تنخرط في البكاء.

وفجأة سمعت بالقرب منها ضحكة رنانة، شرسة وكأنها ضربة عصا. التفتت: إنه "زافييه دارتيه" يضحك بملء شدقيه.

مقتت هذه الحركة. كيف يجرؤ على السخرية على هذا النحو؟ يضحك عما هو بالنسبة لها أكثر سوءا. نعم -بالتأكيد- كانت تعتقد قبل كلمات الموثق أنها بلغت أقصى درجات اليأس، لكن بعد هذا الأمل غير المتوقع، بعد أن فكرت في أن والدتها سوف تنقذ، بدت لها الحياة أسوأ مما كانت عليه قبل هذه اللحظة بساعتين.

وهذا الشاب يضحك.. يجرؤ على أن يضحك.

كان المحامي هو أيضا ينظر إلى "زافييه"، كان واضحا أنه لم يعتد هذه المناظر، خاصة بعد قراءة وصية بمثل هذه الغرابة.

ثم محاولا تهدئة هذا الضحك الذي تملكه، أردف الشاب:

-إن وصية هذه العجوز المجنونة كلها غباء.

فما كان من السيد "بونو" إلا أن نهض بقوامه القصير: فهو لا يحب أن يسخر أحد مهما كان، من أحد زبائنه حتى لو كان ميتا.

قال في جفاف:

-قد تكون الآنسة "دي بونتيه" شاذة الأطوار، لكنها لم تكن مجنونة أبدا.

حينئذ هدأ "زافييه"، لكنه كان مستمرا في الابتسام.

فهمت "أليس" أن هذا الشرط غير المعقول يضحكه. "ليس له نفس الهموم التي لي". هكذا فكرت في مرارة.

أردف "زافييه دارتيه":

-في النهاية، يا أستاذ، أمن المعقول أن تكون هذه العمة الكبرى بكامل قواها العقلية عندما أملت عليك هذه الوصية؟ إن هذه الوصية قابلة للطعن بالتأكيد.

استطرد المحامي القصير:

-بالتأكيد لا يا سيد؛ لأن الآنسة "دي بونتيه" كانت في هذه الأثناء تخضع لفكرة شرعية: فهي كانت لا ترغب -كقولها لي- ألا تتفرق أملاكها بين فرعي الأسرة.

ثم -ملوحا بورقة أظهرها كبرهان بين أصابعه-:

-ها هي شهادة طبية مدونة في يوم الوصية، قد ذكر فيها أن موكلتي سليمة بدنا وذهنا.

استمر الشاب في الابتسام، غير أن قسمات وجهه كانت تعبر عن الدهشة التامة.

قال:

-شيء يدعو للدهشة. أتوقع أن هذه المسنة المجنونة، عفوا يا

أستاذ، هذه الغريبة الأطوار. -هكذا تراجع في سخرية- كانت تعتقد أنها مازالت تعيش عام ١٨٨٠.

أردف المحامي في ضيق:

-كل هذا حسن جدا. لكنني قد أضعت وقتا طويلا بالنسبة لهذه المهمة. ماذا قررت يا سيد؟

ثم أضاف وفي صوته نبرة مودة:

-وأنت يا آنسة "أليس"؟ لابد أن تكوني متفقة معه في الرأي لرفض هذا الإرث أو.. للموافقة على الزواج!

تفرس "زافييه" في الفتاة. أطال النظر إليها، دون أن يبدو على وجهه اللغزي أي نوع من المشاعر..

قال بصوت ضعيف:

-لي إحساس يا ابنة عمي أنك في حاجة إلى هذا المبلغ.

علت الحمرة وجه "أليس" وكأنها صُفعت.

هل يدل مظهرها على الفقر الشديد ويدعو إلى الشفقة في عيني هذا الشخص الغريب المجهول لديها؟ حولت رأسها لكي لا يلمح الدموع تلمع في عينيها.

لكن -وقد كف عن التطلع إليها- كان الشاب قد تحول نحو المحامي وواصل أقواله:

-أنا شخصيا مستعد للموافقة على هذا الإرث. لكن من البديهي يجب أن تتفق الآنسة "دي بونتيه" معي، أي أن توافق على أن تتزوجني.

ثم ألقى نظرة إلى "أليس" التي كانت تنظر إليه، دهشة، وهو يحييها برأسه.

كادت تصيح: "لا. أفضّل رفض هذا المال عن الزواج من هذا الرجل"! عندما سمعت -فجأة وبوضوح وكأنها بالقرب منها-

صوت أمها تقول يائسة:

-أنا لا أتمنى شيئا يا عزيزتي.. سأصبح ضريرة.

هل لها الحق في حرمان هذه الأم التي تحبها أكثر من كل شيء في الدنيا، من آخر فرصة لها؟

كان سيسمع طنين ذبابة تطير في مكتب السيد "بونو".

كان هذا الأخير يفحص الفتاة بعمق. شعرت بأنه -في آن واحد- يتمنى من كل قلبه أن تتمكن من الإرث وفي الوقت ذاته فهو قلق؛ لأنه لا يحتمل أن يراها مرغمة على الزواج من هذا الشخص المجهول، الذي لا يوحي إليها إلا بالثقة بنفسها.

أما عن "زافييه" -وكان جالسا في ارتياح مشبكا ساقيه- فقد سحب علبة سجائر من جيبه وبمنتهى الأدب وكأنه في أحد الصالونات سأل "أليس" إذا كان الدخان يضايقها.

ثم أشعل سيجارته وأخذ يدخنها وكان كل ما يدور من حوله لا يتعدى كونه لعبة أو تسلية.

فكرت الفتاة في أنه أشبه بقط. قط يتظاهر بالنوم لكي لا يفزع منه الفأر الذي يرغب في صيده، ومن يراقب كل حركاته بعينين مغلقتين.

مرت خمس دقائق على هذا الحال، كانت "أليس" تفكر في أثنائها. كان لابد لها بأي ثمن الحصول على المال من أجل والدتها، لكنها مهما يكن الثمن فهي لا ترغب في أن تكون زوجة لهذا الرجل.

وفجأة، في هذا الصمت الرهيب، رن صوتها العذب الهادئ ليعلن:

-لقد وافقت على هذا الإرث، وإذا..

نظرت إلى الشاب الذي التفت فجأة نحوها:

-وبالتالي أن أتزوجك يا سيد.

في الحال سمعت المحامي يطلق زفيرا: زفير ندم أم اطمئنان؟

وأمام دهشة بل وذهول الرجلين، أضافت الفتاة:

-غير أن لي شرطا أقدمه.

تعمقت عينا الشاب في عيني الفتاة. قالت:

-على أن يكون زواجنا شكليا.

*****

إذا كان "زافييه" قد دهش، إلا أنه مع ذلك لم يبد شيئا. إنما استهزأ:

-إن كل ما في عملية الإرث هذه هو بالتأكيد شاذ.

استطردت الفتاة في جفاف:

-لقد نطقت بذلك بنفسك: إنه فعلا عملية، ليس للمشاعر الشخصية دخل فيها. إذن لي الحق -وحتى الواجب نحو نفسي- أن أحمي ذوي.

و-لما صمت الشاب- سألت إذا كان هناك اختلاف في الأمر:

-هل اتفقنا على ذلك يا سيد؟

أجاب "زافييه" في برود:

-اتفقنا يا آنسة.

أما بالنسبة للموثق المسن، فقد فرك يديه وهو يختم قائلا:

-في النهاية، ها هي ذي القصة انتهت إلى الأفضل وأعترف لكما، أني كنت متخوفا..

غير أن نظرته كانت تحتوي على شيء من المكر. لا شك في أنه كان من كل قلبه مع زبونته الجميلة، وأنه ابتهج لكونها هي أيضا

أضافت مشكلة تبدو له صعبة الحل.

*****

"أليس" ممسكة بيدي والدتها بين يديها، قالت لها:

-أليس شيئا رائعا يا ماما؟ أخيرا ستتمكنين من التوجه إلى أمريكا وتستعيدين الرؤية. إني واثقة بذلك.

ثم نزلت دمعتان على وجنتي السيدة الكبيرة المنهكة ومع ذلك مازالت شابة، السيدة التي كرست حياتها لابنتها.

-إنها معجزة يا عزيزتي. معجزة حقا. أعترف لك بأني كنت قد غفلت عن هذه العمة، عمة والدك. وهانا اليوم أشعر بالندم لأنها لم تنسنا. الآن أستعيد ذكراها، كنت أعتبرها مجنونة، مغرورة بنفسها وبلقبها، تهكمية، قد تكون شريرة، أترين كيف من الممكن أن نخطئ؟

كادت "أليس" تجيب:

-ليس إلى هذا الحد يا أمي.. إن هديتها هدية مسمومة. لكنها صمتت في الوقت المناسب.

إذا كانت الفتاة قد أخبرت والدتها فور عودتها إلى المنزل بهذا الإرث الخيالي -الذي كانتا كلتاهما لا تتوقعانه- إلا أنها مع ذلك أخفت جزءا من الحقيقة.

كل ما كانت حددته "أليس" ببساطة هو أن الإرث موزع بينها وبين ابن عمها. وكانت قد أخفت أنه لكي تحصل على المال الذي سيسمح بإرسال والدتها إلى أمريكا، يجب أن تتزوج من هذا المجهول. هذا لأن "أليس" تعرف جيدا مشاعر والدتها التي سوف تفضل رفض عملية عينيها على أن ترى ابنتها تضحي بحياتها

كزوجة.

شدت "مادلين" على يد الفتاة:

-سترافقينني إلى "فيلادلفيا" يا عزيزتي؟

مكثت "أليس" صامتة لثوان. لم تفكر في ذلك.. ومع ذلك كان أمرا طبيعيا أن ترافق والدتها من أجل عملية بمثل هذه الخطورة. إذن الوصية رسمية. لن يحصل الشابان على هذا الإرث إلا بعد الزواج.

*****

عندما علم السيد "بونو" وضع "أليس" كان قد احتجزها عنده في المكتب بضع دقائق، بعد انصراف "زافييه". قال:

-لقد أحسنت التصرف يا ابنتي.

ثم تنحنح كعادته وأضاف:

-فيما يخص عملية العينين لوالدتك وهي على ما أعتقد، لا تقلقي، سأتصرف لكي يكون لك في الحال مبلغ قبل الحصول على الإرث. قد لا يكون وفيرا، لكنه مع ذلك قد يكفي لتغطية نفقات السفر وعملية السيدة "دي بونتيه".

عندما خرجت "أليس" من المكتب، بدت هادئة بعد أن كانت مكتئبة، تواجدت في شارع "إيكس إن بروفنس" الرئيسي، بدت لها نافورات "إيكس" المتعددة وكأنها خيالية. وهي تعتبر سحر هذه المنطقة.

أما ما هو خارق للطبيعة هو ما تم الآن.

شعرت بأنها مثل النائم الذي استيقظ بعد حلم، من وضوحه، أصبح لا يعلم جيدا أين الحقيقة.

ثم تمالكت نفسها.. طلبة الحقوق جالسون في شرفة "دي جارسون"، أقدم وأشهر مقهى في عاصمة الـ"بروفنس" ينادونها لكي تجلس معهم.

قبلت دعوتهم. كانت في حاجة إلى العودة إلى حياتها اليومية قبل أن تلحق بأمها.

هناك -وهي تتظاهر بأنها تثرثر مع زملائها- أخذت قرارها. ألا تخبر والدتها بالشروط الموضوعة للحصول على الإرث وأن تتزوج أثناء وجود الأم في "فيلادلفيا".

"سأوضح لها" -هكذا فكرت "أليس"- في حزن -أنها أحبت ابن العم، هذا المجهول.. ومع كل، الحب من أول نظرة موجود.

وكانت تشعر بقلبها يتمزق على الرغم من أنها كانت تضحك مع الطلاب الآخرين. في التاسعة عشرة من عمرها، في هذه الفترة من العمر التي تفكر فيها الفتاة في الحب، ها هي ترفضه. آه. لولا ظروف والدتها، لرفضت هذا الإرث، واختارت زوجها وعاشت مع الشاب الذي تحبه، حتى بدون مال، أليس أفضل ألف مرة من الإقامة الفاخرة، الخالية من الحنان، التي في انتظارها؟

لكن أن تعيش أمها ضريرة-هكذا فكرت- فهو أسوأ بكثير من الوضع الذي اختارته: المهم الآن هو أن يعود البصر إلى أمي. لا يجب أن أفكر إلا في ذلك.

مع ذلك كانت تخشى هذا الارتباط الذي ستعقده. بالتأكيد لا وجود للحب. لكن كان عليها أن تعيش مع رجل لا تشعر نحوه بأي تقدير. وكيف تقدر هذا المغامر الذي -بدون تردد- كان قد قال لها: نعم؟

نعم إلى الثروة، وقد باع حقه في الحب من أجل عدة ملايين، حقه في الحصول على الأطفال، وأن يعيش مع زوجة يكون قد

أحبها. طبعا لا يمكن إلا أن تحتقره وتزدريه.

*****

ها هي أمها تكرر بصوت قلق:

-سترافقينني إلى أمريكا يا عزيزتي. أليس كذلك؟

كان لابد من الحصول على إلقاء ضوء على الموقف باي ثمن. بسرعة نطقت "أليس" بما أتى إلى ذهنها. وأبسط حل كان هو الذي سوف تدركه أمها بسهولة:

-دراستي يا ماما.. إنك تعلمين اني ساحصل هذا العام على شهادة الحقوق.

-مع كل هذا المال، مازلت ترغبين في العمل يا عزيزتي الصغيرة؟

قدمت "أليس" الحمد لله؛ لان أمها لا تستطيع رؤية الدموع التي تملأ عينيها. كم كانت تتمنى أن تذرف الدمع وأن تنعي آمالها المنهارة، المفقودة إلى الأبد، على كتفي والدتها.. لكن كان لا ينبغي لها أن تتصرف هكذا..

أجابت والدتها في ثبات:

-أمي. أنت التي كثيرا ما قلت لي إننا لا نعرف ما تحجزه لنا الحياة.. أفضل أن تكون لي مهنة بين يدي.

لا نعرف ما تخبئه لنا الحياة.. ها هو الإثبات أمامها. والآن وجب أن تعرف ما يخبئه لها المستقبل.

اقشعرت أمام هذه الأفكار

الفصل الثالث

-ها نحن قد تزوجنا.

ألقى "زافييه" إلى "أليس" نظرة، حكمت هذه الأخيرة بانها ساخرة. وكان في عينيه لمعان ذهبي.

قال في جفاف، مرددا عبارة الوصية:

-لقد اتحدنا مدى الحياة.

لانه في الحقيقة، لم تكن هناك فرصة لهما للطلاق ذات يوم. الآنسة "دي بونتيه" كانت قد فكرت في كل شيء.

كانت هذه الكلمات المتبادلة بعد خروجهما من فندق المدينة "أوتيل دي لافيل" حيث أتم العمدة -وفي صوته نبرة تاثر- ألم تكن عائلتهما إحدى العائلات العريقة في "إيكس إن بروفنس" -التقليد المعروف: وهو أن ينطق كل من العروسين بكلمة نعم.

كانت "أليس" قد ارتجفت وهي تنطق بها.

وكان التأثر -هكذا كان رأي المحيطين بها- قد أضاف إلى صوتها أثناء النطق بـ"نعم" نبرة أشبه بالنحيب، أما عن "زافييه" فقد نطق بهذه الكلمة وكان الأمر مختص بشراء مسكن.

لم يسبق لـ"إيكس" أن تبدو بمثل هذا الجمال. لقد عادت الحياة إلى هذه الأحجار القديمة تحت أشعة الشمس، في بداية فصل الربيع وكل الينابيع كانت تصدر خريرا أشبه بالغناء ابتهاجا باستقبال العروسين.

غير أنه كان زواجا حزينا.. شعرت "أليس" بانها موشكة أن تبكي. أبدت لشاهدتيها- وهما اثنتان من صديقاتها-ابتسامة تدعو إلى الشفقة، لكن الفتاتين وضعتا في الاعتبار أن التأثر هو

سبب هذه الدموع البادية في عينيها.

ألم تكن هذه الزيجة هي النهاية المنطقية لهذا الحب الذي أبهج في كلية الحقوق في "إيكس" - إحدى أجمل طالباته؟

على الأقل هكذا قدمت "أليس" إلى أصدقائها فكرة هذا الزواج الفجائي.. ثلاثة أسابيع فقط بعد رحيل والدتها إلى "فيلادلفيا".

وأثناء ما كان أصدقاؤها يقدمون لها عبارات التهاني وكذلك -محترما التقاليد- الموثق وكاتبه اللذان كانا قد شاهدا "زافييه" -كانت "أليس" تستعيد الأحداث الأخيرة في ذهنها.

*****

بعد مرور شهر من قراءة الوصية الشهيرة.. شعرت "أليس" في آن واحد بأن هذا الحدث الذي تم بالأمس القريب وكأنه تم منذ دهر.

كانت والدتها قد أخذت الطائرة المتجهة إلى "فيلادلفيا" بعد زيارتها للمحامي بأربعة أيام. وكانت برفقتها ابنتها عند مطار "مارينيان". كانت "أليس" قد أوصت بها إلى إحدى المضيفات التي بدورها سلمتها إلى إحدى زميلاتها: لا جدال بألا تترك سيدة أقرب ما تكون إلى الضريرة، تتصرف بمفردها. وحتى في "فيلادلفيا". كان لابد من وصول ممرضة لكي تصطحبها إلى عيادة طبيب العيون حيث ستجرى لها العملية.

وعلى الرغم من اتخاذ كل هذه الاحتياطات وأنه لا يخشى من شيء، ارتبكت السيدتان؛ لأنهما لم تفترقا أبدا قبل الآن. وكانت "أليس" أكثر ارتباكا وإن كانت حريصة على إخفاء مشاعرها. كما

أنه كان عليها أن تخفي عنها -وهي من لم تكذب عليها أبدا- حقيقة مؤلمة لن تفصح لها بها أبدا؟

وها هي بعد ثمانية أيام، تستلم "أليس" برقية تمنحها السرور الوحيد الذي كانت تنتظره والذي ضحت بكل شيء من أجله: نجاح العملية. لكن كان لابد من بقاء "مادلين" شهرا ونصف الشهر في العيادة ومن بعد هذه الفترة-عندما تعود إلى "فرنسا"- ستكون قد استعادت الرؤية على نحو طبيعي.

اضطرت "أليس" -عند العودة- إلى كتابة خطاب لوالدتها تخبرها فيه بأنها وقعت في حب ابن العم هذا الذي قابلته للمرة الأولى عند المحامي، وأن هذا الحب الملتهب جعلهما يسرعان بالزواج. لا فائدة من ذكر كم كانت الدموع التي سكبتها "أليس" أثناء كتابتها هذه السطور الكاذبة. أبدا، أبدا، لن تفهم أبدا ما سر هذه الزيجة التي تمت بسرعة البرق وأثناء غيابها. هكذا فكرت وهي تحرر الخطاب..

وقد كادت الدموع تخنقها. "سوف تعتقد أني لم أعد أحبها، في حين أنه من أجل حبها فقط، اضطررت إلى مثل هذا السلوك!"

في يأسها، استعادت الفتاة اللحظات التي كانت تخطط فيها والدتها لمشاريع مستقبلية لكل منهما، وهما في التاكسي الذي كان يقودهما إلى المطار.

-عند عودتي -هكذا كانت تقول- سنأخذ مسكنا أكثر اتساعا يا عزيزتي، لكي تتمكني من لقاء أصدقائك فيه دون أن أتسبب لك في أي إزعاج.. وبالنسبة للإجازة ربما نتمكن من استئجار مكان في "كاسيس".. وهي ليست بعيدة عن "إيكس" إنه ميناء جميل وهناك البحر المتوسط آية في الجمال.. هناك، كنا نذهب دائما مع والدك.

"ولما تعود -هكذا فكرت الفتاة- ستجد نفسها بمفردها. هذا بالإضافة إلى أن -يجب أن تعترف "أليس" بذلك- خطيبها قد دبر رحلة فور إتمام الزواج."

-إن كل "إيكس" -هكذا كان قد وضح لها- تعرف أسرتنا، وهل تتوقعين أن زواجنا سوف يُسكت الألسن. إذا كنت لا ترغبين في ألا تكتشف الحقيقة، يجب أن نذهب حسب التقاليد إلى مكان ما في رحلة عرس.

على الأقل، ستكونين معفاة من القيام بالتمثيلية مع زملائك. هكذا كان قد أضاف بابتسامته الساخرة التي تمقتها.. لانهم سوف يتساءلون لماذا تبدو هذه العروس دائما حزينة!

وكانت "أليس" قد أجابته:

-لكن بالنسبة لأمي.. يجب أن أكون هنا عند عودتها.

-هي أيضا أكثر من أي شخص آخر-أجاب "زافييه" وقتئذ- سوف تستنتج أن هناك سرا لهذه الزيجة، وقد أخبرتني بانك لا ترغبين في إحاطتها علما بشيء من ذلك.

كانت "أليس" قد حرصت على ألا تكشف الحقيقة لابن عمها. بانها ضحت من أجل والدتها. لقد ادعت أن والدتها سوف تتغيب لشهرين دون الدخول في تفاصيل، هو ذاته امتنع عن سؤالها عن السبب. "أناني"، هكذا حكمت "أليس". وهكذا أتمت قائمة الصفات التي تمنحها إياه.

غير أنه -هنا أيضا- كان عليها أن تعترف بأن "زافييه" على حق.

"حقا سوف لا أجد الشجاعة" -هكذا تحققت- للقيام بالتمثيلية أمام أمي.. لأني قد ألقي بنفسي بين ذراعيها وأعترف لها بكل شيء وهو آخر شيء يتم!

ويجب أيضا أن تعتقد أن حبي لابن عمي جعلني أنانية.. ومن فرط حبها لي ستغفر لي. وعندما ألتقي بها بعد شهرين أو ثلاثة شهور، أكون قد اعتدت التغلب على يأسي وبذلك يسهل علي القيام بهذا الدور!"

لكنها وجدت صعوبة في تحرير الخطاب، هذا الخطاب الكاذب الذي يذكر حبا ليس له أصل.. ولم يسبق له وسوف لا يكون له وجود أبدا.

*****

وها هي "أليس" الآن-وقد بدت شاحبة في تايير أبيض-تودع بسرعة شهود هذا الزواج الشكلي.

بحجة السفر، وعلى الرغم مما بدا على المحامي العجوز من الإحساس بالفضيحة تملص العروسان من وجبة غداء العرس وهي قاعدة مألوفة بعد الزواج. ومع ذلك كان السيد "بونو" يعرف كيف يتصرف لتغطية هذا الموقف. أما بالنسبة لصديقات "أليس"، فكان هذا الموقف في نظرهن عبارة عن اختطاف أمير الأحلام للفتاة؛ لذلك كن يغفرن مثل هذا الوضع بالنسبة لحب يجعلهن حالمات، ويحسدن زميلتهن على هذه السعادة. ومع ذلك سألت إحداهن:

-وإلى أين سترحلان لشهر العسل؟

فما كان من "زافييه" إلا أن أجاب مبتسما، واضعا ذراعه حول كتفي عروسه:

-إلى "اليونان" في جزيرة "زانتوس" الصغيرة. هناك بعض الأصدقاء تركوا لنا هناك مسكنا تحت تصرفنا.

وكانت حقيقة.

كان "زافييه" قد قال للفتاة قبل زواجهما ببضعة أيام:

-بعض الأصدقاء يعرضون علينا أن يعيرونا منزلهما الموجود في اليونان من أجل "رحلة الزفاف".

وكعادته رافق هذه الكلمات بابتسامة صغيرة.

وفي هذا اليوم، كان الشابان قد تناولا الغداء في مطعم "روا رينيه" وهو أقدم الفنادق -وأشهرها- في "إيكس إن-بروفنس". وهو أيضا مكان حيث كانت "أليس" واثقة بأنها سوف لا تتقابل فيه مع أي طالب. وبخلاف ذلك، ما كانت قبلت هذا العرض. ليس لأنها تخشى تقديم "زافييه". فهو جميل، ذو جاذبية واضحة كافية لأن تجعل أصدقاءها يقدرون الحب من أول نظرة.

لا-إن ما تخشاه هو تصرفها الشخصي: فهي تشعر بأنها غير قادرة على القيام بتمثيل مسرحية الحب، وأن تتظاهر بأنها تحب هذا الرجل الذي تمقته تقريبا.

مد لها يده بعلبة السجائر. ولكي تخفي عصبيتها -هي التي لا تدخن أبدا-تناولت واحدة. وإذا بشرارة تخرج من ولاعة ذهبية كان ممسكا بها وتشعلها.

فكرت، ساخرة: "ولاعة ذهبية"! لاشك في أنه اشتراها حاليا. لأنه لم يكن ممتلكا مثلها عندما وصل. لقد قبل الإرث من أجل هذه التفاهات. لكي يعيش حياة لم يسبق له معرفتها قبل ذلك بالتأكيد."

آه! بالتأكيد، لو كان قبولها للإرث لمجرد الحصول على الثراء، ما كانت قبلت هذا المال المسموم.

جلس "زافييه" بالروب على مقعده، مشبكا ساقيه. وأخذ يدخن في تراخ. سألها:

-هل ترغبين في تناول قهوة؟ أم مشروب عصير؟

-قهوة.

وبينما كان يحاول إظهار شيء من المودة، كانت "أليس" تعجز عن الامتناع عن أن تجيبه بجفاف.

أشار "زافييه" بأصابعه إلى رئيس الخدم:

-اثنين قهوة وواحد مياه غازية فراولة. أرجو أن تكون باردة.

انحنى رئيس الخدم:

-نعم يا سيدي.

اضطرت "أليس" إلى قبول فكرة أن هذا المغامر له تصرفات أحد السادة العظماء.

وضع رئيس الخدم القهوة على المائدة، وأخذ يحرك قطع الثلج في الكوب لكي يبرد. ثم -بعد أن رفع مكعبات الثلج، صب عليها الشراب الأبيض بعناية. ثم مد يده به إلى "زافييه" منتظرا رأي هذا الأخير فيه بعد تذوقه. كشخص خبير اشتمه قبل أن يرفعه إلى شفتيه.

-إنه برائحة البنفسج.. لابد أنه جيد.

ثم تناول رشفة وابتسم:

-ممتاز!

-شكرا يا سيدي..

انحنى رئيس الخدم -مبتهجا لهذا الإطراء- ثم انصرف. جو من الترف، تجهله ولم تتمن أن تعرفه ذات يوم، لكنه يبدو مألوفا.. لدى ابن عمها..

غير أنه ليس هناك ما يجعلها لا تلتفت إليه. عندما وصل لدى الموثق، آتيا مباشرة من المطار، كان بيده حقيبة وثائق، لا شك في أن ما كان قد بدا ليست هذه البدلة الأنيقة التي يرتديها اليوم، ولا

هي أيضا تلك التي رأتها عليه الليلة الماضية. لاشك في أنها بدلة جديدة تم شراؤها من أكبر محلات الأزياء. ومع ذلك فهو يبدو أنيقا، تلك الأناقة التي لرجل قد اعتادها دائما. فجأة، خجلت الفتاة من هندامها المتواضع: جونلة بلون كحلي وقميص أبيض مثل زي التلميذة.

"ومع كل -هكذا فكرت، الآن وقد أصبح معي المال الكافي، في وسعي أنا أيضا شراء بعض الأزياء الراقية. إني في حاجة ماسة إليها.."

بعد أن تناول "زافييه" مشروبه، وضع الكأس وعاد للحديث الذي تركه لطلب القهوة.

-إن لم تكن لك معرفة باليونان، ربما تكون لك هذه الفرصة للذهاب إليها.

اليونان! كم حلمت "أليس" بزيارتها، ولكن.. ليس في مثل هذه الظروف! ولا مع هذا الرجل!

واصل:

-لقد سبق لي رؤية هذا المنزل: إنه جميل، مريح. أعتقد أنه سوف يعجبك.

أطفأ سيجارته في المطفأة وابتسم للفتاة ابتسامة أدهشته هو ذاته: حارة، ودية. لقد تحول "زافييه" في لمح البصر بعد هذه الابتسامة: لقد أصبح رجلا ذا سحر عميق، رجلا -هكذا كان تفكير "أليس" دهشة -قد يعجب من يراه منذ النظرة الأولى، لمن يرغب في ذلك. ومن أوجه الغرابة، أنها تحاملت عليه على هذا السحر. إنها تكرهه ولا ترغب في أي شيء يمنعها من أن تكرهه.

هزت "أليس" كتفيها:

-هنا أو هناك لا يهم بكثير..

ثم كف عن الابتسام، وأصبحت ملامحه قاسية. لكن عينيه تطلعتا إلى وجه الفتاة في مودة وتعمق.

قال لها بصوت منخفض وديع:

-لقد قررنا الزواج لأسباب مختلفة..

قاطعته بطريقة جافة:

-ليست مختلفة إلى هذا الحد، مادام الغرض واحداً بالنسبة لكل منا: ثلاثمائة مليون سنتيم.

بدا على "زافييه" شيء من الضيق، لكن سرعان ما تغلب عليه.

-المهم هو بما أننا قررنا الزواج... -تردد لحظة -الشكلي، يبدو لي أنه يجب أن نعيش في تفاهم، إن لم يكن في مودة. لأنه بدون ذلك يا "أليس" ستصبح الحياة جحيما لك ولي.

اضطرت إلى الاعتراف بأن الشاب ليس مخطئا في تفكيره. خمد شعورها بالحقد والعداوة نحوه، فأجابت في صراحة:

-إنك على حق

ولما حاولت أن تبتسم، وجدت صعوبة في ذلك. ثم أضافت:

-على أي حال، في إمكاننا أن نحاول.

فما كان منه -في حركة فجائية- إلا أن مد لها يده من أعلى المائدة. يد رجل قوية، ذات أظافر مطلية بعناية. أصبع صغير به خاتم ذهبي عليه شعار الأسرة ثم أغلق أصابعه على أنامل الفتاة وهي دقيقة، رقيقة. مرة أخرى أبدى ابتسامة حارة. كان من الصعب بالنسبة لها أن تقاومها. سألها:

-بذلك اتفقنا؟

أجابته "أليس". وهي تحاول أن تكون صادقة:

-اتفقنا.

لكن -في أعماقها- كان الخوف من هذا الرجل الذي لا تعرف عنه شيئا بتاتا، مازال قائما، لا تعرف إلا أنه ابن عمها وأنه كان من المفروض أن يصبح زوجها.

وها هو حاليا زوجها.. إنها زوجته أمام الله والرجال الشهود على الأقل.

التفتت مرة أخرى نحو صديقاتها وكن منصرفات: إنهن يمثلن ماضيها.

وما هي إلا لحظات وإذا به يحتويها بين ذراعيه ويقودها نحو سيارة مرسيدس كبيرة -سبور، بلون سماوي.

قال في أنين:

-الآن إلى القصر.

الفصل الرابع

-إلى القصر؟ سألته "أليس" قلقة. لماذا؟ ألن نرحل مباشرة إلى "اليونان"؟ ألم تأخذ التذاكر؟

-للغد، يجب أولا أن نحضر الكلب. هل غفلت عنه؟

شعرت بالحمرة تعلو وجهها:

-تماما. هكذا اعترفت.

انصرف وهو يضحك وكان مرحا.

"كم إنه متقلب، هكذا فكرت "أليس" فهو تارة المغامر، وتارة أخرى الـ"جنتلمان". أجده أحيانا رجلا ناضجا وأحيانا أخرى مجرد صبي.."

أردف "زافييه":

-كنت واثقا بذلك. من أجل ذلك، اتصلت -منذ يومين- بالحارس لكي يعد لنا حجرة.

ثم توقف، وتغيرت قسمات وجهه مرة أخرى وأصبح الرجل الذي يعرف الحياة.

-أقصد حجرتين.. لا تخافي شيئا يا "أليس".

شعرت الفتاة -مما جعلها ثائرة- بأن اللون الأحمر أصبح قرمزيا. غير أن "زافييه" على الرغم مما شاهده من حرج باد عليها، واصل كلامه بنفس اللهجة:

-لم يسبق لي الاعتداء على أي فتاة، ولن أستغل الحق الذي يمنحه لي -مع ذلك- القانون. ستظل عذراء لفترة طويلة، كما يحلو لها.

وفي الوقت الذي كانت "أليس" لا تعرف أي موقف تتخذه،

WWW.RWITY.COM

غير "زافييه" شخصيته مرة أخرى.

قال في مرح وهو يفتح باب السيارة:

-أنا لم أتصل فقط بالحارس هاتفيا، إنما استأجرت أيضا سيارة. إن قصر عمتنا يبعد عن هنا خمسة وثلاثين كيلو مترا في "لوبيرون".

*****

إن الـ"لوبيرون" يقع في أحد أجمل أماكن الـ"هوت بروفنس".

لم تكن "أليس" قد توجهت إلى هناك منذ وفاة والدها، وبينما كانت السيارة تقطع هذه المسافة، كانت تراقب الأفق، أشجار اللوز وقت الإزهار، والقصور التي كانت تمر أمام عينيها.

عن اليمين -وسط حقل الكروم- كانت ثلاث شجرات سرو.

-مقبرة "بروتستانتية". هكذا وضح "زافييه".

كررت دهشة:

-مقبرة "بروتستانتية"؟

أدار نحوها وجهه المبتسم في مودة:

-أتجهلين يا ابنة عمي يا من تعيشين على بعد ثلاثين كيلو مترا من هنا أن هذا الجزء من "هوت بروفنس" كان بمثابة مأوى للبروتستانت الذين هربوا من البلاط الملكي بعد اغتيال "كولينى" والـ"سان -بارتيليمي"؟

-كنت أعلم ذلك تاريخيا لكني لم أتحققه أبدا. هكذا اعترفت الفتاة. لماذا هذه المقابر المنعزلة؟

-هذا لأن البروتستانت لم يكن لهم الحق في مقابر الكاثوليك. وكانت كل أسرة تدفن موتاها بالقرب من منزل

العائلة، وكعلامة لأول مقبرة، كانوا يغرسون -في نفس وقت الدفن- ثلاث شجرات سرو.. وكانت المقابر الأخرى تتلقى موتاها في ظلالها ودائما من نفس الأسرة، وحاليا لقد حصلوا بالقوة على ما هو أقوى من القانون. وقد حصل البروتستانت على حق دفن ذويهم في مقبرة الأسرة.

ثم توقف عن الكلام، مشيرا إلى قصر، ينتصب شامخا أنيقا أعلى إحدى القرى.

-ها نحن في "لورمارين" ومسكن آل "بونتيه" ليس بعيدا.

خلال لحظة -وقد استسلمت لحديث الشاب- غفلت "أليس" عن الموقف العجيب الذي كانت فيه. أشار إلى مسكن أقرب إلى القصر قد بدا عن يمينهم، قائلا:

-ها هو مهدنا العائلي، يا ابنة عمي العزيزة. ربما أكون قد أحسنت الفهم بأن جدتنا اللطيفة ورثته لكلينا حتى لا يخرج أبدا من الأسرة.

أخذ يضحك. غير أن الضحك لم يكن هذا الضحك الشبابي المنطلق كسابق عهده، إنما كان ضحكا مرا، حقودا.

-ومع ذلك لا أتوقع أن يشغله نسلنا، نظرا للشروط التي فرضتها على هذا الزواج لن يكون لنا أبناء.

علت الحمرة وجه الفتاة.

"إنه حقا جريء، هكذا فكرت. لقد أحسنت بعدم استسلامي لتظاهره بالمودة."

*****

توقفت السيارة أمام مسكن قائم ذي جمال أخذت به الفتاة

على الرغم مما له من جمود.

قالت:

-لقد تذكرته الآن. عندما كنت آتي إلى هنا مع والدي كان "جوزيف" العجوز هو الذي يفتح لنا.

وعندما تعرفت على هذا الشيخ النحيف الذي اتجه نحوها بابتسامته الودود ويديه الممدودتين لها، أضافت:

-وهو كما هو. دائما هو.

-يا لسروري! الآنسة "أليس"؟!

ثم نظر إليها وفي سذاجة أضاف:

-لقد كبرت يا صغيرتي..

أفاد ذلك في إلحاق الارتخاء بالوافدين اللذين لم يتمكنا من الامتناع عن الضحك.

ثم التفت الرجل العجوز نحو "زافييه"، تفحصه بعمق وأردف:

-بذلك، إنك يا سيدي سليل السيدة "لويز" أنا لم أعرفها، لكن والدي الذي كان طفلا عندما توفيت، كثيرا ما كلمني عنها. كان يذكر أنها كانت ذات جمال باهر.. وهانت الآن زوج لصغيرتنا "أليس".

ثم تجمعت تجاعيد وجهه في ابتسامة مشرقة.

-إنها هبة وبركة من السماء.

فكرت "أليس" بأنها بالعكس لعنة من الشيطان. لكنها لم تشأ أن تكدر هذا الرجل الطيب الذي أضاف وهو يشير إليهما بالدخول إلى الفناء الكبير الذي تطل عليه الأبنية:

-إذن، لقد أتيتما لأخذ "يوبو". حسنا. سافتقد هذا الكلب. إنه حقا كلب أصيل، شجاع. في النهاية لابد من رحلة شهر

عسل، لكن على ما يبدو لي لن تجدا مكانا أفضل من هنا لقضائه.

مرة أخرى أحست "أليس" بالحرج، بينما -وكم كانت دهشتها- سمعت "زافييه" يقول:

-أعتقد ذلك أنا أيضا..

"عبارة أدب ولياقة ليس إلا، هكذا فكرت. إذ إنه يعمل دائما على جذب الجميع إليه حتى هذا الرجل المسن "جوزيف"."

وكان هذا الأخير مبتهجا ثم ترك الآنسة "أليس" آه عفوا السيدة "أليس"، لكي يتحدث مع السيد الكونت..

-بالتأكيد إنكما سوف تقيمان هنا؛ لذلك يجب القيام ببعض التطوير على هذا المسكن لأنه ليس حديثا.

لكن ينبغي عدم الاقتراب من كل ما هو عمل فني بارز.. لأن الآنسة كانت توليه عناية خاصة، وكثيرا ما كانت تقول لي: "فاهم يا "جوزيف"، لابد من أن "أليس" و"زافييه" يجدان القصر في أحسن حال عندما يأتيان لسكناه".

وأضاف إذ فوجئ:

-أمر عجيب، عندما أفكر في ذلك. وكأنها كانت تشعر بأنكما ستتزوجان!

لم تتمكن الفتاة في هذه المرة من إطلاق زفير ضيق. لقد أرهقتها كل هذه التمثيلية. "لكن لاشك في أني سوف أعتادها- هكذا حدثت نفسها- ولن أعيرها اهتماما لكنها حاليا تعمل على إثارتي."

هل شعر "زافييه" بعصبية "أليس" وأشفق عليها؟ أمسك بذراعها وقال للحارس:

-ليتك تحضر لنا الآن هذا الكلب حتى نتعرف إليه. من أي سلالة هو؟ أهو كانيش أم جريفون؟

ضحك الرجل وقال:

-آه تتكلم عن كانيش. سوف تشاهدانه.. إنه ضئيل.

تقدم خطوة، التفت نحو الشابين.

-امكثا هنا، ساصطحبه.. ولا تتحركا؛ لأن هذه الدابة لا تعرفكما.

ثم ابتعد تاركا "أليس" و"زافييه" في حيرة.

أردف "زافييه":

-إني أتساءل ترى من أي نوع هذا الكلب الذي كانت تهتم به عمتنا الكبيرة: كنت أراها مع كلب صغير، لكن على ما يبدو أنه ضخم.

ولما لم تجبه "أليس"، أضاف:

-هل تتأملين قصرك يا "أليس"؟

وهي حقيقة! في هذه الأثناء كانت الفتاة تتطلع في إعجاب إلى البناء البادي أمامها.

من هنا، كان هناك نبات متسلق يغطي أحد جوانب المبنى، خافضا بذلك من جفاف مظهره -تاريخ التشييد. عام ١٦٢٨ كان محفورا تحت شعار السادة الذين أقاموا هذا المبنى الرائع.

-منزل جميل.. هكذا تمتم "زافييه".. انظري إنها زهور الآلام.

اقترب من النبات المتسلق حتى إلى الطابق الأول، المغطى بالزهور بنفسجية اللون.

قطف واحدة وأعطاها لـ"أليس":

-آه يا لها من زهور عجيبة!-هكذا جاء تعليق الفتاة-لم يسبق لي مشاهدة مثلها.. لكن لماذا هذا الاسم؟ ياله من اسم عجيب!

ضحك في هدوء:

-بالتأكيد يا آنسة، ينبغي لك أن تعرفي كل شيء: لقد سميت هذه الزهرة هكذا لأن بها بالداخل أعضاء التأنيث. عددها أربعة وعلى شكل مسامير، ومن حولها يرى بوضوح إكليل الشوك..

ثم توقف فجأة.

وإذا بفهد أسود، ثائر، يندفع نحوهما، مكشرا عن أنيابه المهددة. ومن خلفه العجوز "جوزيف" يجري من خلفه.

في أقل من الثانية، وجدت "أليس" نفسها في قبضة من حديد، خلف "زافييه" الذي كان يحميها بجسمه من الحيوان الضخم، هذا الكلب الألماني المندفع نحوهما.

في اللحظة التي كان الكلب سوف يقفز عليهما، أمره:

-قف.

في الحال، عاد الحيوان نحو الحارس ووقف أمامه.

أما بالنسبة للرجل العجوز، فكان يضحك من كل قلبه، مبتهجا بما شاهده من مداعبة لطيفة.

-أيوجد كلب أكثر شجاعة وطاعة ووداعة أكثر من ذلك؟ لكنه بالتأكيد لا يعرفكما؛ لذلك فهو يقوم بواجبه.

لا تتحركا، هيه، يجب أن أقوم بعملية التقديم أولا.. وبعد ذلك كل الأمور تسير على ما يرام.

ثم -بدورها- انطلقت الفتاة في عصبية: ردت بعد الفزع الذي تملكها عندما رأت هذا الوحش مقبلا عليهما، إنما أيضا هذا التظاهر بالفزع الذي أبداه "زافييه".

فزع هذا الأخير:

-أنا لا أتذوق هذه المداعبات.

أردفت "أليس" ساخرة:

-واضح. حقا لم أكن متوقعة أن أراك رجلا يخاف من كلب!

وهي واثقة بأنها ليست حقيقة. وحقا إن هذا النوع من الكلاب فصيلة الذئب إذا وثب إلى عنقك، فهو أخطر بكثير من كلب "لولو". لكن الآن ليست هناك أي خطورة، إلا أن الفتاة لم تر في هذه الحركة التي قام بها "زافييه"، سوى سخافة.

أخيرا صاح "زافييه":

-هذا غباء. إنك تستحق أن..

ثم توقف فجأة عندما رأى نظرة "أليس" الساخرة وتمالك نفسه.

أخيرا قال "جوزيف" وقد تضايق:

-المعذرة، لقد اعتقدت أن.. في النهاية، كنت أعلم أنه لا خوف من ذلك.. وهو بالتأكيد غباء ما قمت به، الآن أكرر اعتذاري.

هز "زافييه" كتفيه، ثم قال في جفاف:

-ليتنا لا نذكر ذلك بعد الآن.

في هذه الأثناء، كان الكلب يتشمم "أليس". من كل جانب، ثم انتهى من الاختبار. جلس ومد قدمه الأمامية إلى الفتاة. انطلقت هذه الأخيرة في الضحك، ضحك بريء، مرح في هذه المرة، فتناولت قدم الكلب في يدها وشدت عليها.

-حسنا، هكذا أردف "جوزيف"، لقد أصبحت صديقته في الحال يا آنسة، آسف سيدة "أليس". هل رأيت أنه قد فهم أنك سيدته الجديدة؟

بدت نظرة الرجل حزينة:

-عندما توفيت الآنسة، اعتقدت أنه سوف يدع نفسه يموت هو أيضا. ومع ذلك ها هو يحبني.. لكنني أيضا أحبه. وهو يعرف أني أنا سيده.

وكان "زافييه" -ومازال يبدو ثائرا- ينظر غير راض إلى هذا المشهد على الرغم من أنه طريف، مشهد "أليس" والكلب الذئب "الوولف" واضعا قدمه في يدها.

أضاف "جوزيف":

-هيا يا صديقي، يجب أن تقول صباح الخير إلى السيد أيضا.

حول الكلب رأسه نحو "زافييه"، ثم اتجه نحوه بخطى بطيئة، شمه وابتعد عنه وهو يزمجر بخفة.

وضّح الحارس:

-إنه يعلم أنك غاضب يا سيدي، من أجل ذلك لا يتقبل السلام، لكنه لن يسيء إليك وبعد ذلك سيعتادك، سترى ذلك.

أردف "زافييه" بنبرة قاسية جافة:

-على أي حال، أنا لا أتوقع أنه ستكون بيني وبينه صداقة.

ومع ذلك كانت "أليس" تلاطف رأس الكلب الجميل الذي -وكأنه استنتج أنها ستكون سيدته- عاد لكي يجلس بالقرب منها.

ثم علامة للصداقة- ومن عادة الفصيلة الألمانية أنها لا تلحس- أخذ يدفع يدها بفمه.

"على الأقل-هكذا فكرت الفتاة- لن أكون بمفردي.. من الآن فصاعدا، سيكون معي من يحبني."

في هذه الأثناء، مد "جو" يده بحلقة بها كم من المفاتيح إلى

السيد "زافييه" صاحب المنزل الجديد.

-لا شك أنك ترغب في زيارة المسكن يا سيدي.

تناولها هذا الأخير في شغف.

-نعم إني متعجل لمعرفة هذا القصر الذي كان قصر أسلافي.

التفت نحو الفتاة ما بين المازح والساخر وسالها:

-تعالي معي يا "أليس". أم أنك تفضلين صحبة هذا الكلب؟

الفصل الخامس

نظرت "أليس". إلى المرآة التي تعكس لها صورة فتاة رائعة، لم تصدق أنها هي.

كانت البلوزة التي ترتديها تظهر لون بشرتها، والجونلة الطويلة التي هي من القطيفة السوداء تزيد من نحافة قوامها، وبذلك تجعلها أشبه بإحدى أميرات العصور القديمة. "إن شعري المسترسل لا يتناسب مع هذه الملابس -هكذا فكرت- قد يكون الشينيون أفضل مع هذا الهندام الأنيق".

فعملت على ضم شعرها الحريري الأشقر أعلى رأسها، في سرور أقرب ما يكون إلى سرور طفلة صغيرة.

*****

عندما زارت "أليس" هذا القصر الذي أصبح قصرها الآن، انبهرت إلى حد أنساها الثمن الذي دفعته فيه.

كان كل شيء في القصر يوحي بالعظمة والذوق الرفيع: الصالونات الفسيحة المليئة بالأثاث الثمين، المدافئ التي تكفي لشي خروف، السلم الرخامي الذي يؤدي إلى الطابق الأول

وكان يتقدمهما "جوزيف العجوز" مشيرا لهما إلى كل شيء في المنزل في سرور وكأنه منزله. كان قد توقف في الطابق الأول أمام باب ثقيل من الخشب المنحوت.

أعلن وقتئذ:

-هنا مسكن السادة.

ثم -تراجع- لكي يدخلا، ثم نزل.

مسكن السادة يتضمن حجرتين- لكل منهما مقاييس شقة صغيرة- يفصلهما حمام.

عندما تواجدا بمفردهما في المدخل الذي يُفتح عليه بابا حجرتيهما، أردف "زافييه" قبل الدخول إلى حجرته:

-لقد سمحت لنفسي بإعطاء أوامر بالنسبة لوجبة العشاء، حتى تقدم لنا في الثامنة مساء في الصالون الصغير؛ لأني وجدت حجرة الطعام فسيحة إلى حد ما بالنسبة لشخصين.

لم تتمكن "أليس" من الامتناع عن الضحك، أطلقت ضحكة جميلة رنانة تتناسب مع شعرها الأشقر وسحرها: إن المائدة الموجودة في حجرة الطعام تكفي لعشرين مدعوا.

كان "زافييه" قد وضع يده على مقبض باب حجرته، لكن قبل أن يفتح التفت -مترددا- نحو "أليس" التي دخلت إلى حجرتها.

- "أليس"..- كان في صوته نبرة توسل -لقد فكرت في أنه في إمكاننا..

ثم توقف وبعد قليل واصل:

-آه. لا ليس أن نحتفل بزواجنا،.. إنما بدخولنا إلى هذا المنزل. إذا كنت متفقة معي في الرأي..

كان قد ابتسم، تلك الابتسامة المليئة بالسحر..

-إذن.. تجملي..

كان من الصعب أن ترفض مثل هذا الطلب، ومن أجل ذلك وقفت "أليس". أمام المرآة لكي تتزين، وهو ما كانت لا ترضاه.

*****

إن حجرتها غاية في الأناقة، بها سرير منجد بقماش البروكار، السقف على الطريقة الفرنسية، الدواليب الواسعة لحفظ الفساتين، وكانت الحروف الأولى للفتاة: أ-ب.A.P. فكرت في أنه لابد أنها كانت ملكا لـ"أورور" جدة هذا الذي يُدعى زوجها حاليا."

تنهدت؛ لأنها كانت قد غفلت عن هذا "التفصيل".

وفي أحد أرجاء المنزل سُمع صوت ساعة حائط: عدت "أليس" دقاتها.. ثماني دقات!

-يا إلهي- هكذا قالت-لقد حانت ساعة العشاء. لحسن الحظ فأنا مستعدة.

لأنها كانت دائما تكره الانتظار. ألقت نظرة أخيرة إلى مرآتها: نعم، هذا الشينيون وهو على شكل ضفائر مضمومة بشريط مناسب مع هذا الثنائي الأنيق، ذي الطابع الكلاسيكي.

ابتسمت لهذه الصورة التي تليق لمجلة.. من مجلات الترف. هل إنها هي حقا؟!

*****

نزلت "أليس" السلم ببطء وكأنها ترغب في العمل على تأخير -بقدر المستطاع- لحظة هذا العشاء لاثنين.

كانت ممسكة بإحدى يديها فستانها الطويل الذي يحف بدرجات السلم، وهي تجهل أنها جميلة إلى الحد الكفيل بأن يجعل أي رجل يراها يقع في حبها.

دخلت الصالون الصغير، وفي الحال أطلقت صيحة إعجاب. كان في المدفأة نار، ترتفع ألسنتها مضيئة، تنعكس على الجدران

الحجرية: أمامها مائدة عليها أطباق لشخصين.

كانت المصابيح والثريات الكهربائية مطفأة. والشموع وحدها هي التي تضيء الغرفة في ديكور حالم.

-ربي!

سمعت هذه الكلمة من خلفها، قوية ذات نبرة دهشة جعلتها تلتفت.

كان أمام الباب "زافييه" يتطلع إليها في دهشة واضحة جعلتها تسأله:

-ماذا بالأمر؟

-تعالي معي، تعالي.. ستفهمين.

وكان قد أمسك بيدها وقادها جريا نحو المكتبة.

ثم أوقفها أمام لوحة يضيئها شعاع قمر يخترق نافذة.

دهشت الفتاة بدورها: وجدت نفسها أمام ذاتها. إن الصورة التي يفحصانها بنفس التاثر، كانت لسيدة شابة تشبه "أليس" في تطابق وكأنها توءمها، لكن تسريحتها كانت بنفس الطريقة. وقد يكون نفس الملبس مشابها.

تمتمت الفتاة:

-أمر عجيب.

-عجيب! كرر "زافييه". وهل تعرفين من هي هذه الفتاة: "أليس دي بونتيه"؟ لأنك تشبهينها فقد حملت اسمها. إنها والدة عمتنا الكبيرة: إنها جدتنا للجيل الثالث لكل منا. منذ ثوان، عندما شاهدتك، ظننتك شبحها.

وكان مازال ممسكا بيدها. وببطء أبعدها عنه لكي يتحقق منها أكثر.

قال بصوت منخفض:

-أتعلمين أنك جميلة جدا.. أكثر مما كنت أعتقد؟ إنك ذات جمال لا ينسى!

وقبل أن تجد الوقت الكافي للرد عليه، كان قد غير من نبرته وقال في مرح:

-والآن هيا بنا نتناول عشاءنا لأني أكاد أموت جوعا. وأنت؟

تناول "زافييه" الزجاجة الموضوعة في دلو الثلج:

-كأس آخر يا "أليس"؟

كانت وجبة شهية: كبدة، ودجاج، وعصير وفاكهة وشراب.

في النهاية لقد ظهر "زافييه". وكله سحر لا تكدره أي سحابة.

ودون أن تنتبه لذلك، مدت "أليس". كأسها الفارغة. وإذا بخصلة من الشينيون تسقط على عنقها لكي تزيد من جماله.

أردف "زافييه". وهو يرفع كأسه:

-الآن هيا نشرب للمرة الأخيرة نخب هذه السهرة اللذيذة قبل أن تنتهي.

أفرغ كأسه دفعة واحدة، حاكته "أليس" بشيء من البطء ثم نهض. مد يده إلى الفتاة التي بدأت تترنح بخفة.. قالت مبتسمة:

-أعتقد أن الشراب صعد إلى رأسي. أشعر بأن كل شيء يتراقص حولي، ليس شيئا منفرا، إنما غريب.

اعتذرت:

-لست معتادة الشرب!

استطرد "زافييه":

-مرة واحدة لا تعتبر عادة..

ومع ذلك كان لابد لنا من الاحتفال بدخولنا إلى مسكن أجدادنا. تعالي لكي أعيدك إلى حجرتك.

*****

وأمام باب "أليس"، انحنى "زافييه" على اليد الجميلة التي كان قد أخذها بين يديه. وفي رقة قبل أصابعها.

-شكرا على هذه السهرة يا "أليس".

تمتمت الفتاة وكان رأسها قد بدأ يدور:

-طاب مساؤك "زافييه".

استندت إلى الباب، أرادت أن تفتحه، تعثرت.. أمسك بها الشاب. قال ضاحكا:

-أعتقد أنه ينبغي لي أن أقودك حتى إلى سريرك.

وحوط الفتاة بذراعه لكي يسندها. فتح الباب، قادها نحو سريرها..

وفجأة، وكانت حركة جافة غير متوقعة مثل هبوب العاصفة وقت سكون الليل: أخذها بين ذراعيه و.. مع محاولتها التخلص عملت شفتاه على الحصول على شفتيها.

حاولت عبثا التخلص من بين يديه مثل عصفور أسير. لكنها لم تتمكن من ذلك. ليس أكثر من عصفور هزيل. ظل ممسكا بها وهي كانت غير قادرة على مقاومته لأن الرغبة التي تملكته كانت تزيده عنفا.

شعرت بشفتي "زافييه" على شفتيها التي كانت تغلقهما بإحكام، دفعته بقوة في محاولة للتخلص منه وهي تشعر بالكراهية نحو هذا الفم الذي يحاول الاقتراب من فمها. لكن ما الذي كانت

تقدر عليه قبال هذه القوة الشهوانية التي تتضاعف.

ومع ذلك نجحت في ذلك لفترة قصيرة، لكن ارتطمت قدمها بالسرير فسقطت.

وجدت أمامها "زافييه" يقهقه:

-ولماذا لا أستغل حقوقي كزوج؟ من يمنعني من ذلك؟ أين مضى هذا الرجل اللطيف الذي تناول معها العشاء؟ إنه الآن شخص جاف، بدائي لا تستطيع قوة أن توقفه.

أردف في استهزاء:

-هل اعتقدت أني سوف أتصرف وفقا للشرط الغبي، غير المعقول الذي فرضته عند زواجنا.

ثم مال عليها أكثر. اقشعرت.

-لكنك لا تعلمين معنى كلمة رجل أيتها الساذجة "أليس"! وكانه من الممكن منعه من اتخاذ المرأة التي يشتهيها.. خاصة عندما تكون زوجته.

مال عليها وكانه من أخطر القراصنة. صرخت الفتاة من فزعها:

-دعني يا "زافييه". ليس لك الحق في..

كان وجهه، وجه إنسان شرس فظ لا يتأثر بالتوسلات.

-بلى، لي الحق. القانون يمنحني إياه. لن أغتصبك يا "أليس". ستكونين لي إن قبلت أم لم تقبلي. كما يأخذ الزوج زوجته، لأنه حقي. عدلا.

بسرعة القط الذي يخرج مخالبه، خربشته، سالت الدماء من وجنته، لكنه لم ينثن، انخرطت في البكاء، لم تفلح صيحاتها ولا توسلاتها في جعله يعدل عن رأيه. كفت عن البكاء، لكي تجده أمامها في قناع الازدراء، والسخرية، ينظر إليها بعينين متحجرتين..

كانت ترقد على السرير حزينة، ذراعها في نفس الوضع الذي كانت عليه عندما ألقى بها على السرير.

ولم تطمئن إلا عندما شعرت بأن الباب يغلق على "زافييه". عجزت عن الحركة، شعرت بأنها أصبحت في حالة قريبة من الإغماء.

وآخر فكرة لها كانت حقدا شديدا نحو هذا الرجل الذي تصرف مثل صعلوك ثمل.

الفصل السادس

-أقدم اعتذاري-هكذا قال. أقدم اعتذاري: كنت قد أسرفت في الشراب، كم إنك كنت جميلة جدا. كان قد تم ذلك على البسطة، صباح اليوم التالي. عندما خرج من حجرته في نفس الوقت الذي خرجت فيه "أليس" من حجرتها وكانت -عندما رأته- قد تراجعت من الفزع.

كان حينئذ قد أبدى ابتسامته الساخرة التي تمقتها..-وكان قد نطق بهذه الكلمات.. لكنه قالها بمزيد من الوقاحة وكذلك السخرية، مما جعلها لا تتقبل الاعتذار. لم تجب ونزلت السلم.

وفي الخارج، لاطفت الكلب الذي كان قد أحضره "جوزيف" للرحيل. بعد أن قام هذا الكلب اللطيف "يوبو" بتحية الفتاة رقد في الأريكة الخلفية من السيارة متجاهلا "زافييه". لم يتبادلا كلمة واحدة إلى أن وصلا إلى المطار. وفي الطائرة التي تقلهما إلى أثينا كانت "أليس" تنظر من النافذة، تتأمل السحب وكانت تشعر بأن هذه الليلة المأساوية تنبئ بأن غيرها ستليها.

وكان "زافييه" جالسا بجوارها يتصفح مجلة وكان شيئا لم يحدث.

فكرت هكذا: "يجب أن أغلق بابي كل ليلة.. لكن -هكذا قالت في قلق- عسى أن يكون للباب مفتاح."

وفجاة أتتها فكرة تبعتها ابتسامة فاترة: "يوبو! سوف أضعه في حجرتي.. إنه يساوي كل مزاليج العالم. فهو كفيل بصد هذا الرجل إذا حاول اقتحام حجرتي!"

اطمأنت لهذه الفكرة وابتسمت للمضيفة التي تقدم لها

صينية وجبة الغداء.

ترى هل اعتبر "زافييه" أن هذه الابتسامة موجهة إليه، حتى إنه سألها في مودة:

-هل تفضلين قضاء هذه الليلة في "أثينا" أم نتوجه مباشرة إلى "زانتوس"؟

اقشعرت عندما قال هذه الليلة. ولا شك في أنه لاحظ ذلك، لأنه قطب حاجبيه وواصل بصوت منخفض، بندم حقيقي هذه المرة أو على الأقل هكذا كان يبدو:

-أؤكد لك يا "أليس" أني آسف لما صدر مني مساء أمس.

"آسف لأنه لم يصل إلى غرضه". هكذا فكرت الفتاة ثائرة.

-أؤكد لك -واصل "زافييه"- أنه لن يتكرر ذلك أبدا!

أجابت الفتاة في جمود:

-بالتأكيد لا. لأني اعتزمت أن آخذ "يوبو" في حجرتي.

كان يتأهب لرفع الشوكة إلى فمه، لكنه توقف فجأة. نظر إلى "أليس" التي لمحت في نظرته شيئا من الإعجاب، لكنه صمت.

وبعد لحظات استطرد وكأنها لم تتكلم.

-إنك لم تجيبي عن سؤالي. هل تفضلين البقاء في "أثينا" أم التوجه إلى "زانتوس" مباشرة؟

سألته:

-هل هي بعيدة عن "أثينا"؟

-ساعة!

-وكيف يتم التوجه إليها؟ هل هناك سفينة تقوم بهذه الخدمة؟

ابتسم:

-"زانتوس" جزيرة صغيرة جدا، يمتلكها أصدقائي بأكملها. وعندهم قارب كبير ينتظرنا عند ميناء "أثينا". "مرة أخرى

اقشعرت "أليس" إذ شعرت بأنها ستكون بمفردها مع "زافييه" على جزيرة، بعيدا عن كل شيء. لحسن الحظ -هكذا فكرت حتى تطمئن نفسها- "إن معي الكلب!"

-وعدا خادم واحد مقيم بالمنزل، كل السكان يتلخصون في راع عجوز، رجل بسيط يكاد يكون مجنونا.

هل لاحظ الارتباك في نظرات الفتاة وأخذ يتسلى بذلك؟ أضاف:

-أتعشم ألا تخافي..

كانت ترغب في أن تجيبه: "إني لست خائفة إلا منك!"

غير أنها فضلت عدم الرد لكي لا يثير المناقشة، وانتقلت إلى موضوع آخر.

-يا إلهي. لو كان لدينا وقت كاف، فمن الأفضل أن نذهب إلى الجزيرة منذ هذه الليلة.

ابتسمت:

- إني أتعجل معرفتها!

وهي كانت -في الحقيقة- لا تشعر بالقوة حتى تخرج مع "زافييه" في "أثينا".. على الأقل عندما يصلان إلى "زانتوس" في إمكانها ادعاء التعب بسبب السفر والذهاب فورا إلى حجرتها.

أردف "زافييه". في هدوء:

-كما تشائين.. على أي حال أكرر لك أن "أثينا" لا تبعد عن الجزيرة إلا ساعة واحدة. إذن سوف نستطيع التوجه إليها كلما رغبنا في ذلك.

ثم سمع صوت المضيفة تعلن:

-سوف نهبط على "أثينا". درجة الحرارة على الأرض ثماني

عشرة درجة. برجاء أن تكفوا عن التدخين وأن تربطوا الأحزمة..

*****

كان "زافييه" وبرفقته "أليس" في قاعة المطار في انتظار حقائبهما. أول ما وصل كان قفص "يوبو". عندما خرج من سجنه الضيق المؤقت، انتفض، مد أقدامه المتقلصة، تلفت من حوله باهتمام، وأخيرا جلس بالقرب من "أليس". وإلى جانبهما كان مسافر ألماني يفحص الكلب.

تمتم في إعجاب:

-ياله من حيوان رائع. نادرا ما رأيت كلبا بمثل هذا الجمال ولا حتى عندنا.

لكن الكلب كان لا يبالي بكلمات الإطراء هذه؛ لأنه كان لا يرى إلا سيدته الجديدة. أما بالنسبة لـ"زافييه" فكان "يوبو" غير مبال به وإن كان لا يؤذيه. بعد قليل أشار "زافييه" إلى الحمّال قائلا:

-آه. ها هي حقائبنا، الآن ناخذ تاكسي إلى ميناء "بيريه" هناك سنجد قاربنا.

وبينما كان الحمال -بمعاونة السائق- يضع الحقائب في العربة القديمة، جلس "زافييه" و"أليس" بأي شكل: كان الكلب يحتل أكبر مساحة.

-ميناء "بيريه"- هكذا علقت الفتاة- كم حلمت بان أزوره.

أفحمها "زافييه" ضاحكا وقد بدا أنه غفل عن مشهد الليلة الماضية.

-لا تتوقعي الكثير. لأنه سوف يخيب ظنك أنه -على الرغم

من اسمه الشهير- ميناء صيد لا أهمية له. وكل ماله من أهمية هو أنه محاط بالمقاهي -لسوء الحظ يرتادها السياح -حيث يقدم الملاحون رقصة الـ"سيراكي" ويقدمون الشراب المصمَّغ.

-شراب مصمَّغ!

-ألم يسبق لك تناوله يا "أليس"؟ حقا إنها أول مرة تأتين فيها إلى اليونان. إنه مشروب خاص بهذا البلد.. إن من يتناوله يحبه مثلي، لكن أعتقد أنه ربما لا يعجبك أنت. أبدت دهشتها.

-يبدو أنك تعرف هذا البلد جيدا.

قال بلا مبالاة:

-نعم كثيرا ما ترددت عليه.

ألحت:

-لكني كنت أظنك في "أستراليا".

ضحك:

-هذا لا يمنع السفر. إنك تعلمين أنه توجد طائرات في "أستراليا".

إن هذا الرجل يزخر بالمفاجآت، لا شك في ذلك. ترى لماذا كان قد أتى إلى اليونان قبل ذلك؟

لم تسأله؛ لأنها كانت تعرف أنه غير مجد. إذ إنه سبق لها مرارا محاولة الاستفسار عن أي شيء عن ماضيه لكنها كانت تتعرض للصد. من البديهي أنه لا يرغب في التحدث عنه. لماذا؟!

كان التاكسي يسير بمحاذاة البحر تاركا المدينة عن يمينه.

عاد "زافييه" إلى الحديث:

-لسوء الحظ، لن تشاهدي الـ"أكروبول" هذا المساء، لأنها على الجانب الآخر من "أثينا" سنتوجه إليها عندما ترغبين في ذلك.

كان يبدو ودودا. إنهما يمثلان اثنين لم يسبق معرفة الواحد

للآخر قبل الآن، قد جمعتهما المصادفة للسفر معا دون أن تكون لهما رغبة في التعارف.

*****

كان القارب الذي في انتظارهما -كما قال لها- عبارة عن يخت صغير بكبينته الفاخرة، مقدمته المعدة لحمامات الشمس ومقاعده ذات المساند الفاخرة المريحة.

كان "زافييه" قد جعل التاكسي يتوقف في المكان ذاته حيث يوجد هذا اليخت. تم نقل الأمتعة بواسطة السائق. غير أنهم وجدوا صعوبة في نقل "يوبو". لكنه عندما رأى سيدته على هذا المركب، لم يتردد في الدخول إليه. وقفز في مرح.

وها هو الآن يبدو مسرورا لهذه النزهة البحرية.

كان "زافييه" يقود القارب كملاح متمرن والفتاة -على الرغم من معاناتها مشاعر الخوف والحزن- كانت تتذوق متعة هذه النزهة البحرية هي أيضا. بحر يعكس السماء، بحر ذو زرقة وسكون.

التفت "زافييه" نحو الفتاة معلنا:

-ها هي جزيرتنا.

نقطة -كانت قد اعتبرتها في بادئ الأمر مركبا من بعيد- يزداد حجمها برؤية العين وأصبحت أرضا.

-من الممكن رؤية المنزل، انظري..

وكان يشير بإصبعه إلى مبنى طويل أبيض، يظهر بوضوح أكثر فأكثر، من خلفه أشجار الزيتون والصنوبر.

ثم دخل القارب إلى ميناء طبيعي حيث توقف.

في الحال بدا رجل في الأربعين من عمره، يرتدي بنطلونا

مقلوبا على ساقيه ذواتي العضلات الواضحة والتي لفحتهما الشمس، تقدم في الماء لكي يمسك بالمرساة التي يلقيها إليه "زافييه" ويشبكها في الحلقة المعدة لذلك.

ثم وضع "زافييه" لوحا خشبيا لكي تمر عليه "أليس" حتى لا تبتل، انحنى الخادم أمامها وهو يتمتم بعبارة غير مفهومة قبل الذهاب إلى القارب لإحضار الأمتعة.

-"إيتارك" يرحب بك باللغة اليونانية، هكذا وضح "زافييه" أنه لا يعرف من اللغة الفرنسية سوى أربع أو خمس كلمات، لكن بما أني ملم ببعض العبارات من لغته، نستطيع أن نتفاهم معه على أي حال، إنه يجيد مهنته وهو يعرف كيف يتصرف بمفرده وبدوره -بعد فترة تردد لا تتجاوز الثواني، قبل أن يندفع إلى الكوبري الضعيف الذي يصل القارب بالأرض الصلبة- وصل "يوبو" على البلاج ورفع أنفه إلى الريح ثم أسرع لزيارة مسكنه الجديد.

عاد الخادم حاملا الحقائب وهو يسرد شرحا طويلا، من البديهي أن الفتاة لم تفهم منه شيئا. لكن "زافييه" كان يستمع إليه باهتمام ويجيب عليه ببعض كلمات مختصرة، لا شك في أنها مناسبة لما كان ينتظره الخادم؛ لأنه كان يحك رأسه.

إنه يفهم وبالتأكيد يتحدث اللغة اليونانية على نحو أكثر مما يقول الآن. هكذا فكرت "أليس". كيف يحدث ذلك؟

ازداد شعور "أليس" بالأسى على هذه الأرض المجهولة ومع أولئك الرجال المجهولين لها، وهي منفردة على هذه الجزيرة كما لو كانت في سجن.

"إذا لزم الأمر بأن أهرب -هكذا فكرت- فكيف أتصرف؟"

غير أنها اطمأنت إلى حدما عندما، شاهدت "يوبو" مقبلا نحوها.

لاشك في أن "إيتارك" حك رأسه ردا على سؤال، وجهه إليه

"زافييه".

أردف "زافييه":

-أمر مزعج، لقد أخبرني بأن التليفزيون معطل والفني لن يحضر قبل يوم أو يومين.

ثم وجه بعض كلمات باليونانية إلى الخادم الذي حك رأسه بشدة أكثر، فتضايق "زافييه".

-إنه يقول لا.. لاشك في أني أسأت فهمه. سوف تطول المدة أكثر مما كنت أتوقع.

"إنه يكذب. هكذا فكرت "أليس" في الحال. إن هذا الرجل، بالعكس أيّد شيئا ما، لماذا؟"

ترى هل أن عينيها كشفتا عن شكها؟ أخذ "زافييه" يضحك:

-يجب أن أخطرك: هنا عندما يحك رأسه من أعلى إلى أسفل فهذا يعني "لا" وعندما يقوم بهذه الحركة من اليسار إلى الشمال، فهذا يعني "نعم". وهو على عكس كل الشعوب الأخرى.

عضت "أليس" شفتها، لقد خجلت من شكوكها غير المؤكدة. لكن أيضا، ما الذي قام به "زافييه" حتى هذا اليوم لكي يوحي إليها بالثقة؟

ليس فقط أنه كان يخفي عنها كل شيء، لكنه أيضا لم يحترم الوعد الذي ارتبط به. عادت إلى ذهنها أحداث الليلة الماضية، ومن جديد تملكها الخوف.

ومع ذلك، كأنه لم يحدث شيء، قال "زافييه" في مودة:

-تعالي، انظري منزلك الجديد. إنه بالتأكيد لا يساوي قصر "لوبيرون"، إنه -ستشاهدين بنفسك- ممتع على الرغم من ذلك.

*****

كان المنزل أكثر من ممتع. كل شيء فيه معد لكي يكون منزلا صيفيا رائعا: مولد كهربائي يضمن إضاءة المنزل، المطبخ الكبير-مملكة اليوناني- مزود بأحدث الأجهزة والحمامات في غاية الأناقة والنظافة.

كما كانت حجرة معيشة فسيحة تطل على البحر من خلال فتحة زجاجية. سجاجيد بيضاء، مقاعد ذات مساند مريحة، مناضد منخفضة كل هذا كان يؤثث المنزل في ترف. وكانت الحجرات: اثنتين في كل طرف من المنزل.

عندما رأتهما "أليس" شعرت بالانزعاج يتملكها. لكن كان "زافييه" قد أسرع بقوله:

-ستقيمين في الجناح الأيسر من المنزل وأنا في الجناح الأيمن. بذلك لن نعمل على إزعاج الواحد للآخر. وسنرى بعضنا عندما -"أنت" وركز على كلمة "أنت"- ترغبين في ذلك.

صدر من الفتاة زفير اطمئنان. غير أنها لمحت في عيني زوجها أنه لم يغفل عن إحساسها بالطمأنينة.

ثم كان مجيء الخادم الذي قطع عليهما أي فرصة للحديث.

انحنى أمام الفتاة، ونطق بجملة غير مفهومة بالنسبة لها.

قام "زافييه" بالترجمة:

-إنه يقول إن العشاء معد على الشرفة أمام البحر.

جعلها تمر قبله من باب اللياقة.

وفعلا كانت مائدة لشخصين مجهزة أمام البحر، حيث كانت الشمس تغرب ملقية بأشعتها الذهبية والبرتقالية. وكان على المفرش الموضوع على المائدة كم من الأطباق.

وضح "زافييه":

-إنها مشهيات. إن خادمنا، طباخ في الوقت نفسه وعلى ما

يبدو أنه متمرن. أتعشم أن ينال المطبخ اليوناني إعجابك.

كلمات ودية، خفيفة، لا أهمية لها.. لكنها كانت لا تصل إلى مسامع الفتاة إلا على هيئة تمتمة غير محددة.

من جديد شعرت الفتاة بالأسى. هل ستكون هذه السهرة أشبه بالليلة السابقة؟

بصوت خافت نادت:

- "يوبو".

الفصل السابع

صوت أجش ينطق بكلمات غير مفهومة..

استيقظت "أليس" فزعة، من الذي يتكلم؟ أين هي؟ ماذا تفعل في هذه الحجرة المجهولة؟

ثم تذكرت: إنها في اليونان. الشمس تغمر حجرتها ولا شك في أن الخادم يثرثر مع غيره، لأنها سمعت تبادل كلمات.. سكتت الأصوات الآدمية، لكي تليها الـ"بيه".. بيه" الصادرة عن قطيع خراف وكذلك صوت البحر.

تمطت في سريرها. شعرت بأنها نضرة ومستريحة بعد ليلة طويلة قضتها في نعاس عميق.

بجوارها، صوت من يتشاءب. انتفضت، ثم ضحكت: إنه "يوبو" فهو يرقد على السجادة الموضوعة أسفل السرير، تحت قدميها. وهو أيضا كان يستيقظ في هذه اللحظة.

شعرت بالهدوء في هذا الصباح. لقد وفى "زافييه". بوعده و-بعد أن قبل يدها كان قد اتجه نحو حجرته.

إنها حقيقة -لقد لاحظت ذلك- إنه لم يشرب: كأسين من الشراب المصمغ -وهو مشروب أعجبها- وهذا كله.

أما العشاء فكان يونانيا: ورق عنب محشي، لحم، جبن. لقد أحبت أطباق هذا البلد.

أثناء ما كانا يتناولان العشاء، كان غروب الشمس يعكس أشعة قرمزية على سطح البحر. في الحال أحضر الخادم جزءين من الفسفور يضيئان بلا إشعال. لكن القمر كان مضيئا إلى حد يغني عن هذه الشموع.

بعد أن تحدث "زافييه" عن اليونان وعن عادات شعبها، انتقل بقفزة كبيرة -إلى "أستراليا". ساردا للفتاة أوصاف هذا البلد الذي مازالت به مساحات شاسعة بلا زراعة. بدا متحدثا ممتعا، يجيد معرفة ما يتحدث عنه ويسرده بأسلوب الراوي، بل وقد وصل إلى جعل "أليس" تبتسم لما كان يحكيه من بعض النكات.

وكان وجود "يوبو" بالقرب من الفتاة يطمئنها ويسمح لها بتوقع إقامة طيبة هادئة في "زانتوس". بالإجماع قد لا تكون على هذا النحو المنفر الذي كانت تخشاه.

نهضت وتوجهت إلى النافذة. كانت تبدو مثل فتاة أحلام في قميصها الوردي وشعرها المنسدل على كتفيها.

كان البحر يرتفع نحو خمسين مترا فقط، وكانت ترغب في الاستحمام، ارتدت بسرعة لباس بحر وفتحت باب النافذة الذي يطل على الشرفة، اتجهت نحو الشاطئ وكلبها يتبعها.

ألقت بنفسها في الماء الذي بدا رطبا في البداية عند خروجها من سريرها، لكن سرعان ما لبثت أن وجدته دافئا.

نادت:

- "يوبو"..

لكن الكلب كان يئن على الشاطئ، رافضا الحضور لكي يلحق بها. اضطرت إلى العودة بسبب ما شعرت به من جوع. وكم كان سرور الكلب الألماني.

وعند عودتها إلى الفيلا، لمحت "زافييه" على الشرفة، يتناول إفطاره. كان أشبه بأحد اليونانيين القدماء الخارج من البحر: اضطرت إلى الاعتراف بأنه ذو جمال واضح عندما شاهدت قوامه الرياضي. "أن يقال العكس- هكذا فكرت- قد يكون حكما غير عادل"

ولما كان يدير ظهره، لم يرها عندما أقبلت، أو أن يكون قد تظاهر بأنه لم يرها.

تحققت منه تماما كانت قد رأت في كتاب عن جزيرة كريت، صورة "الملك ذي الزنبق" وهو "روا أوليس" وهي من أشهر اللوحات في هذه المنطقة "أن يشبهها "زافييه"- هكذا حدثت نفسها- إذ إن له نفس المظهر المتشامخ: هذه العين الضخمة الواسعة وهذا الفم الشهواني لماذا وجب أن يكون بمثل هذه الجرأة، مثيرا للقلق على هذا النحو؟"

عندما سمع "زافيية" نباح الكلب التفت وأبدى إشارة ودية إلى الفتاة وصاح لها:

-لم أكن أعلم أنك استيقظت تعالي لتناول الإفطار معي.

لم يكن في صوته وابتسامه أي أثر للسخرية أو التهكم، وها هي ابتسامته أصبحت حارة من جديد.

"يا إلهي" -هكذا فكرت "أليس"، لو ظل على هذا الحال كل الأيام. قد تكون الحياة شبه محتملة!" وبحكمتها عزمت على أن تبدو هي ذاتها هادئة مبتسمة وكان ليلة أول أمس لم تكن.

جلست بالقرب منه وقالت:

-صباح الخير.. سأتناول قدحا من الشاي وإحدى هذه الفطائر التي بالعسل لأني أكاد أموت جوعا.

قدم لها:

-ليمون؟ لبن؟ سكر؟

-شريحة ليمون، شكرا، وبدون سكر.

وأثناء ما كان يصب لها الشاي، رفعت طاقية الحمام، فتحرر شعرها وسقط على كتفيها وكان أشبه بأسلاك ذهبية وفضية. ندمت في الحال على هذه الحركة التي قامت بها، لأنها فوجئت بأن

في نظرة "زافييه" إعجابا، ارتبكت له. لكن -بخلاف ما كانت تتوقع- لم يبد أي تعليق ولا كلمة إطراء.

*****

وبعد الغداء، كان قد اقترح عليها في غير إلحاح:

-سأقوم بجولة في البحر. أترغبين في المجيء معي؟

أجابته حينئذ:

-لا، لأني أرغب في التنزه. ثم أضافت وهي تضحك: سوف أستكشف جزيرتي. لأن لي إحساسا بأني "روبنسون كروزو".

وهو كذلك وكان قد أردف مازحا:

-احذري من مقابلة أي وحش!

-مع "يوبو" أنا لا أخشى شيئا.

وانصرفا وقتئذ كل واحد من جانبه.

كانت الفتاة -بتحررها هذا- تشعر بمتعة لم تعرفها منذ أسابيع.

سارت نحو نصف الساعة وإذا بها تسمع أصوات الخراف، ولا شك في أنها هي ذاتها التي سمعتها في الصباح. وكانت شاة سوداء مثل الشيطان واقفة على صخرة تنظر إليها مقبلة، وعيناها الذهبيتان القريبتان مثبتتان على الفتاة. وعندما اقتربت هذه الأخيرة منها، اختفت بنفس السرعة التي ظهرت بها.

في أنين، اندفع "يوبو" في ملاحقة للدابة. ها هي حاسته التي لكلب حراسة دفعته إلى تجميع القطيع المتناثر على الصخور. وعندما نادته "أليس" رأت شبحا أشبه بالكاريكاتير يتجول ملوحا بعصا في اتجاههما.

كان رجلا مسنا، نحيفا جدا، ذا بشرة سمراء أشبه بغصن كرمة يابس. توقف على بعد عدة خطوات من الفتاة، غير قادر على التقدم أمام تهديد الكلب الذي يزمجر.

فهمت الفتاة أنه الراعي الذي تحدث عنه "زافييه". هو أيضا بالتأكيد الشخص الذي سمعته يثرثر في الصباح مع الخادم.

أسكتت الكلب بضربة خفيفة و-مبتسمة- حيت الرجل العجوز بإشارة من يدها.

اقترب هذا الأخير، تفحصها في فضول لكن في غير شراسة. غاية ما في الأمر، كان حائرا للقائه لها على هذه الجزيرة.

ثم ضحك بطريقة شاذة، واختفى خلف صخرة، بالضبط كما فعلت الشاة. وكانت الفتاة تسمع ضحكاته من بعيد التي يرددها صدى الصوت.

"حسنا- هكذا فكرت- أعتقد أني قابلت الوحش، لكن لا أعتقد أني لن أجعل منه "فاندريدي". إن وحش "روبنسون كروزو". كان أقل شيخوخة وأقل غرابة!"

لم تكن الجزيرة أقل أهمية من حديقة شاسعة. لكنها كانت ذات جمال وحشي قد سحر "أليس". كان كلما التفت المرء إلى أي جانب فهو يرى البحر. وأشجار صنوبر، وشجرة زيتون، كانت الزراعة الوحيدة مع بعض نباتات الزعتر وغيرها التي تنمو على الأرض.

وأثناء ما كانت "أليس" تدور حول هضبة ضئيلة، توقفت دهشة ومبتهجة في آن واحد: على قمة الصخرة التي في وسط البحر، كانت ترتفع أطلال معبد صغير وهي رمز للتاريخ الماضي:

بعض الأعمدة، قد انهارت على الأرض، وجذع امرأة.. جلست الفتاة على قطعة من أحد الأعمدة التي قد سقطت أسفل

الصخرة وتطلعت مبهورة إلى البحر الساكن تحت الشمس.

وعندما رآها الكلب الكبير جالسة، عمل مثلها ووضع رأسه في محبة على ركبتيها.

كم كان من الممكن أن تكون الحياة هادئة، وديعة.

*****

عملت "أليس" على رفع الصخرة التي كان ينتصب عليها المعبد القديم، وأعجبت بمقاييسه المتناسقة، وتساءلت عن الرسومات التي يرمز إليها. ثم عادت إلى الشاطئ نادمة.

تمددت على الشاطئ في تكاسل، مقدمة للشمس ساقيها وذراعيها العاريتين.

يبدو أنها كانت قد نعست لأن -فجأة- نباح الكلب جعلها تقشعر وتنهض في الحال وتبتعد قليلا وهي لا تدري أين هي.

وكانت المعجزة: في المكان الذي كانت عليه قبل ذلك بثوان سقطت قطعة من العمود!

وقفت الفتاة تنظر إليها فزعة.

قالت:

-ها أنت أنقذت حياتي يا كلبي. لأنه لولا نباحك الذي جعلني ألتفت لسقطت هذه القطعة على رأسي.

لاطفت الكلب الذي كان مازال يزمجر. لاشك في أنه خاف هو أيضا.

تفحصت الفتاة قطعة الرخام. قد تزن على الأقل نحو عشرة كيلو جرامات وكادت تقتلها لو كانت قد سقطت على رأسها.

-كيف سقطت؟ هكذا تساءلت بصوت عال..

لكن كيف يحدث أن الأعمدة التي كانت تكوّن المعابد أو أن التماثيل التي كانت منتصبة شامخة تصبح جذعا أو ذراعا.. وهي التي كانت كأنها تتحدى الزمن؟!

ارتجفت "أليس" من خوف يرجع إلى الماضي. عادت نحو المنزل متخذة الطريق الموازي للشاطئ وكانت -لا إراديا- تنظر من حين إلى آخر، خشية أن تسقط عليها قطعة حجر أخرى من السماء..

وها هو مرحها وسعادتها اختفيا. والجزيرة السعيدة، بدت لها الآن معادية.

إذا كانت التماثيل ضدي أيضا وليس الرجال فقط، ما الذي ينبغي لي أن أقوم به لكي أبطل سلطانهم علي؟

*****

وما إن لمحت المنزل، حتى أطلقت زفير ارتياح.

ها هي الشمس قد أغرقت البحر. و"زافييه" كان قد عاد إلى الشرفة ويلوح لها بيديه علامة للتحية.

قفز إلى الأرض بحركة رشيقة:

-كدت أقلق -قال هذا ضاحكا. لقد عدت منذ أكثر من ساعة. وبدأت أشك في أنك قد تكونين قد اختطفت من أحد قراصنة البحر.

ثم نظر إليها بتدقيق، ثم قال:

-إنك شاحبة يا "أليس". وأراك ترتجفين. ومع كل، الجو ليس باردا.

-لا، لكن في الحقيقة لقد اعتراني خوف شديد.

تفحصها وقد استدارت عيناه من الدهشة:

-خوف؟ على هذه الجزيرة. لا أعتقد أن كلبنا هذا قد هجم عليك.

حاولت أن تمزح ولكن اللهجة لم تساعدها، قالت:

-لا إنه عمود أو على الأصح أعمدة هي التي ضايقتني.

قطب حاجبيه علامة بانه لا يفهم شيئا من كلامها. وضحت:

-لقد ذهبت حتى إلى آخر الجزيرة، هناك حيث المعبد الصغير المستدير.

-آه، حقا، معبد "آستارتيه" إنه رائع. أليس كذلك؟

-رائع. ممتع.. لكن حدث أنه عندما تمددت على الشاطئ -لا شك أنه كان بدافع من الغيرة مني- أحد التماثيل أسقط كتلة من حجر، لولا وجود "يوبو" ونباحه لقتلتني بالتاكيد.

وكانت أثناء سردها تحاول أن تبدو مرحة، لكنها لم تفلح في ذلك.

شحب الشاب بدوره.

-يا إلهي. لكن كان من الممكن أن تُقتلي في الحال.

لاطف الكلب الذي ابتعد لكي يهرب من هذه اليد التي لا يحبها بالتاكيد.. يا إلهي. "أليس". إنك الآن تخيفينني. احكي لي كيف حدث ذلك.

وحوط كتفيها بذراعه، لكن في حركة أخ.

-أولا تعالي لتناول ما يعيد إليك طاقتك لأنك شاحبة جدا. يا عزيزتي.

لم ترفض "أليس" إزاء هذه الكلمات الحانية. وكانت خائفة ومتوترة إلى حد أنها كانت ترغب في الاستناد إلى كتف الشاب، لقد منحها هذا التوتر الرغبة في البكاء والحصول على صداقة رقيقة.

كان قد نادى الخادم الذي أقبل جريا حاملا الصينية وعليها المشروب وكوبان.

ذكر هذا الأخير لـ"زافيبه" بعض الكلمات باليونانية. فأجابه -على ما يبدو- هكذا قال ملتفتا إلى الفتاة-أن خوفك واضح. لأنه يسأل عما حدث.

تكلم اليوناني مرة أخرى. جملة طويلة. كان "زافيبه" يصغي إليه بانتباه مشدودا.

قال بالفرنسية:

-لا، مستحيل.. ولما تحقق من أن الآخر لا يفهمه، ترجم الجملة باليونانية.

لم تهتم الفتاة بهذا الحوار. تناولت الكوب الذي قدمه لها زوجها. رفعته بطريقة آلية إلى شفتيها.

ولكي تنطق باي شيء حتى تهرب من هذا الأسى، سالته:

-هل استمتعت في البحر؟ هل عدت منذ فترة طويلة؟

نظر إليها دهشا:

-لقد أخبرتك بذلك يا "أليس".. أكثر من ساعة. لماذا لم تصدقه؟ لقد شكت فجاة في أنه يكذب وأنه عاد لتوه من البحر.

الفصل الثامن

البحر رائع يا "اليس". تعالي للاستحمام معي. كان "زافييه" واقفا على الشرفة وهو يبدو مثل أحد اليونانيين القدماء خارجا من الماء ذا جمال يوناني وكانت مازالت قطرات الماء تنزل من على رأسه.

كرر قوله "اليس"، وكانت ممددة في تكاسل على خشبة.

-هيا انهضي وتعالي للاستحمام معي، المياه ساخنة ولطيفة وألا نستحم فيها يعتبر جريمة.

مد لها يده. أمسكت بها و-مستندة إليه-نهضت في حركة رشيقة.

اليد في اليد والعين في العين، وقفا هكذا لحظات وجها لوجه.

وإذا بارتباك يجعل "اليس" تقشعر. لقد شعرت بان الدماء تسري في عروقها ساخنة وسريعة أكثر من غير المعتاد. ما الذي اعتراها؟ أصبحت لا تعرف ذاتها. فجأة خجلت لأنها في لباس البحر أمام هذا الغريب. ثم شعرت بالرغبة في أن تلقي بنفسها إلى هذا البحر.

وكان "زافييه" هو أول من تحرك بعد هذه اللحظات التي قضياها بلا حركة أشبه بتمثالين.

كرر:

-هيا بنا نستحم..

تبعته "اليس" مطيعة ولم تترك اليد القوية التي كانت ممسكة بها إلا عندما ابتلت قدماها بالماء.

*****

وفي المساء وفي اللحظة التي كانت "اليس" موشكة فيها أن تدخل للنوم، استعادت ذكرى هذه الأحداث. لقد قضت يومها في مرح في البحر، لم تتركه إلا لكي تتمدد تحت أشعة الشمس. ولا تترك حرارة الشمس إلا لكي تعود إلى الغطس ثانية في الماء.

كان القمر ينعكس على البحر وعلى الرغم من أن كل الأنوار مطفأة، كان نور هذا الكوكب -المبجل- قويا يغرق الحجرة بنوره إلى حد جعل الفتاة عاجزة عن النعاس. نهضت. وقفت أمام النافذة تستمع إلى هدير الأمواج.

وكانت في هذه اللحظة قد عاودتها ذكرى هذه الفترة الصباحية. هذه اللحظة التي تغير فيها كل شيء وكان مبدعا قد عمل على تحويلها إلى امرأة أخرى تختلف تماما عما هي عليه. وأنها أصبحت على عكس ما كانت عليه.

"أنا من تكره "زافييه"، من أهرب منه، كنت سجينة في يده.. بدا لي أنه ليست من قوة تنتزعه من يدي.. وكان "فولكان" قد ربطنا الواحد بالآخر للأبد.. لو كان في هذه اللحظة قد احتواني بين ذراعيه لعجزت عن مقاومته. وكامة من العصور القديمة خضعت لسلطانه"

ها هي تقشعر. ما الذي حدث لها. ما هو هذا التغيير؟ "علما بأني لا أحبه. هكذا فكرت. إن الحب لا ترافقه هذه الأحاسيس ألا وهي القلق والخوف، ليست لي أي ثقة بهذا الرجل ومع ذلك.."

"ومع ذلك -هكذا اعترفت بصوت خافت- لقد ربكني في هذا الصباح كما لم يسبق لأي شاب أن يربكني!"

ثم في بطء، أسدلت الستائر على البحر والسماء، سماء تتناثر فيها النجوم كما في مشهد مسرحي. ثم اتجهت إلى سريرها.

"يا إلهي -هكذا فكرت- عسى ألا يكون هذا الرجل قد لمح

تأثري.. كم سيسخر مني. لكن هكذا حدثت نفسها مرة أخرى -وقد بدأت ترتبك أكثر فأكثر- ما الذي حدث لي؟"

رقدت، أخذت تتقلب في فراشها. لكن لا سبيل للحصول على النعاس.

ومع ذلك -بخلاف ما كانت تخشاه في بداية وصولهما إلى "زانتوس" -لقد تصرف مثل جنتلمان حقيقي. جذاب وفي الوقت ذاته، رقيق ممتع و.. غير مبال!

"لو كان يقضي إجازته مع شاب مثله لما تصرف بخلاف ذلك. هكذا فكرت الفتاة في طمأنينة و-يا لها من غرابة- في شيء من المرارة.

لقد تزوجني حقا من أجل هذه الثروة. وحاول العمل على إغرائي وجذبي إليه في البداية كما يفعل أي شاب يتواجد بمفرده مع فتاة جميلة.. لكن الآن وقد فهم أنه ليست له فرصة معي، أصبح لا يحاول."

ومع كل، كان هذا ما تمنته. وقد تكون مخطئة إذا تذمرت لهذا الوضع أي لعدم اهتمامه بها. على الأقل ها هي قد حصلت على السلام.

غير أن ما يطلبه الجسد والروح في التاسعة عشرة من العمر يختلف كثيرا عن ذلك.

"في الحقيقة -هكذا كانت تردد الفتاة لنفسها- أنا لا أحبه. آه بالتأكيد لا. لكن لماذا أخفي عن نفسي أني شعرت في هذه الفترة الصباحية بانجذاب إليه؟"

عن دراستها -إن الحق يتطلب المنطق- كانت "أليس" لم تعتد أن تخفي الحقيقة عن نفسها، مهما كانت منفرة. "إننا بمفردنا على هذه الجزيرة الخالية من الناس.. إنها اليونان وهو الصيف. كل شيء

هنا يحث على المتعة والحب.. هذا بالإضافة إلى -وهو ما لا يمكن إنكاره- "زافييه" جميل جدا.. وإن أخذني بهذا الجمال فهو أمر طبيعي. لابد أن تكون راهبة من ترفض الحب في هذا المناخ المليء بالترف والجمال".

تخيلت في إحدى اللحظات، شفتي زوجها -لأنه مع كل فهو زوجها -على شفتيها.. وبكل قواها دفعت بهذه الرؤيا التي لاحقتها.

"لا جدال، هكذا فكرت في حدة.. قد يكون جنونا. لأنه سوف يجد أن كل شيء مباح له. وخاصة يجب ألا يلمح أن لسحره تأثيرا عليّ. وبدءا من اليوم، عوضا عن أن أتوجه للاستحمام معه، سأقوم بنزهة على الجزيرة."

*****

وكانت "أليس" قد جعلت الخادم يعد لها بعض السندويتشات وكانت قد أعلنت لـ"زافييه" -عندما طلب منها أن تلحق به على الشاطئ- أنها تعتزم مواصلة زيارتها لأنحاء الجزيرة.

-لم أشاهد منها سوى جزء واحد.. وأرغب في مشاهدة الآخر. هكذا قالت له.

وعلى عكس ما كانت تخشى -وربما تكون قد تمنت- لم يحاول الشاب أن يحتجزها، ولا أن يعرض عليها مرافقته لها.

لكنه كان قد قال لها في بساطة:

-ستشاهدين أن الجانب الآخر من الجزيرة مختلف تماما عن الذي شاهدته. مناظر جميلة جدا. لكنها موحشة.

كم كانت دهشة الفتاة، عندما لم يستجب "يوبو" لندائها

عندما تاهت للانصراف، لا يمكن أن يكون قد اختفى من الجزيرة. ومع ذلك فهو غير موجود.

وضح "زافييه":

-لقد خرج للنزهة هو أيضا. "زانتوس" ليست كبيرة إلى هذا الحد. لاشك في أنك ستلتقين به.

إنها فترة الظهيرة الآن، والشمس حارقة تكاد تكون غير محتملة، لمست "أليس" أن "زافييه" كان على حق عندما قال لها إن هذا الجانب من الجزيرة موحش.

ولا جدال في أنه لابد من أن تلطف جسمها بحمام. هناك كانت صخور عالية تقوم بمثابة حاجز لا يمكن تخطيه بين البحر واليابسة. أطلقت الفتاة زفير ارتياح عندما لمحت أخيرا باقة من أشجار الزيتون تكوّن شبه واحة من الظل على هذه الأرض القاحلة التي لا تنمو عليها سوى الأعشاب.

جلست تحت الأشجار المعمرة ذات الجذوع الضخمة. وفتحت ما كان قد أعده لها الخادم "إيتارك" من مؤن. وكان الترموس مليئا بالشاي المثلج. شربته راضية إذ شعرت بالارتواء والانتعاش كان المكان حولها ساكنا. ولا حتى صوت صرخة طائر ولا ماعز فكان هذا المناخ يدعو إلى الكآبة.. فقط لو كان "يوبو" هنا. لاشك في أن نزهته الخاصة قادته إلى مكان آخر من الجزيرة لأنها -وقد خاب ظنها- لم تره منذ مغادرتها للقصر.

فجأة أرادت "أليس" أن تعود إلى المنزل.. لأن جو المنزل الرطب يعتبر جنة بالنسبة لها وها هي قد افتقرت إليها.

لكن من شدة حرارة الجو، لن تتمكن من مغادرة ظلال الأشجار. "سانام فترة القيلولة. هكذا فكرت. وعندما أستيقظ، يكون الطقس قد اعتدل، وبذلك أواصل نزهتي أو أعود إلى المنزل،

حسب مزاجي.

عندما استيقظت، كان فعلا الجو رطبا بعض الشيء. نظرت إلى ساعتها ووجدتها -دهشة- أنها السادسة. وها هي بعض الأضواء البنفسجية في السماء تعلن نهاية النهار.

"ساعود -هكذا فكرت - من الحكمة أن أعود".

غير أنها قررت تسلق كم من الصخور لكي ترى إذا كان هناك من خلفها بحر يمكنها الاستحمام فيه. وكان جسمها متعطشا إلى الماء بعد حرارة فترة بعد الظهر، خيل لها أنها سوف لا تجد القدرة على المشي إن لم تغطس في الماء. كانت لها هذه الرغبة في منح أي شيء كما يتمنى المرء مقابل كاس ماء عندما يشعر بالعطش.

كانت الصخور صعبة التسلق، أكثر مما كانت تعتقد. وفي منتصف الطريق، توقفت متسائلة إذا كان الاستمرار مجديا.

نعم- كما توقعت- إن الصخور من الجانب الآخر أصعب ولن تستطيع النزول عليها حتى لو كان من خلفها شاطئ يسمح لها بالاستحمام.

غير أن الفتاة كانت ذات طبع عنيد لا مثيل له. أن تعود من منتصف الطريق، أن تشعر بالهزيمة قبل الوصول إلى ما تصبو إليه، كان هذا مضادا لطبعها ذي الإرادة القوية. بعد أن استراحت بضع دقائق، واصلت الصعود، وقد أصبح أكثر مشقة بسبب حرارة الجو الشديدة.

وأخيرا وصلت على صخرة على شكل بسطة تعلو بحراً بلون النباتات المائية.

وكما كانت "أليس" تخشى، لأن جدار الصخور من هذا الجانب لا يسمح لها بالحمام الذي تحلم به لأن صخوره تنحدر رأسية.

ظلت بلا حركة للحظات، بقدر ما هو من أجل استعادة أنفاسها فهو أيضا لكي تشاهد البحر والسماء معجبة بهما، إذ كان كل منهما ينعكس على الآخر. بعيدا جدا بدا شراع أبيض في الأفق..

وكان هذا هو آخر منظر رأته..

وها هي قوة مجهولة تدفع بها إلى الهاوية. سمعت صوت صراخ.. وهو الذي أطلقته- ثم بعد ذلك العدم.

*****

كل شيء من حولها أسود داكن وبارد.. شعرت "أليس" بالمياه تصل حتى كتفيها، تلمس ذقنها، دون أن تتمكن من القيام بحركة حتى تتخلص منها. هل ستموت غريقة؟ هل ماتت؟

لماذا عجزت عن الحركة؟ هل إن جسدها الآن طريح، مكسور تحت الصخور؟ أي صخور؟ أين هي الآن؟ ما الذي تقوم به في الظلام؟ أين والدتها؟ حاولت أن تصيح النجدة.. يا أمي، غير أن شفتيها رفضتا أن تفتحا للنطق بالكلمات التي ستنقذها. شعرت بأن التيار المائي يحملها وأنه يغشى عليها.. ما هو هذا الكابوس الفظيع؟ ومن جديد تشوش كل شيء.

أنين.. شيء ما دافئ، حان أشبه بملاطفة يدفعها محاولا جعلها تفيق إلى نفسها. وكان هذا الأنين وهذا الشيء الذي يدفعها: نباحا قويا أشبه ما يكون بنداء للنجدة.

"يوبو"

أرادت أن تقول: "أنت هنا، يا كلبي، لقد وجدتني." لكنها عجزت عن الكلام. شعرت بشعره تحت يدها. لم تكن بمفردها.

إن كلب الحراسة الألماني وجدها في هذه الجزيرة الموحشة حيث كانت قد أتت لكي تموت فيها. أحد ما -هكذا تذكرت جيدا- دفع بها من أعلى الصخور لكي يقتلها.

واصل الكلب نباحه لكي يأتي أحد ما لنجدتها، لكن بعد فوات الأوان.

سمعت صوتها بوضوح -وكأنه صوت شخص آخر- يقول:

-لقد فات الأوان.

وراحت في غيبوبة من جديد.

هل ستموت؟

الفصل التاسع

عند رأس "أليس". كان بعض الرجال يتكلمون بصوت منخفض.. همسات لا تفهم الفتاة منها شيئا، ليس لها معنى بالنسبة لها. لكنها الآن، قد تحسنت. لم يعد جسدها المتعب ملقى على الصخور. إنها تستريح على فراش وثير.

تنهدت. حينئذ كفت الهمسات. ثم إذا بصوت لا تعرفه يعلن:

-لقد عادت إلى صوابها.

حاولت "أليس" أن تفتح عينيها لكنها لم تتمكن من ذلك: شعرت بثقل في جفنيها.

كما أنها سمعت:

-لا ينبغي استجوابها الآن.

لماذا يرغبون في استجوابها؟ قلقت وهي بين اليقظة والغفلة وأطلقت أنينا. وفجأة تملكها الخوف.

عاد الرجال إلى الكلام:

-ستنام في هدوء. وهذا النوم سوف يفيدها.

-من الأفضل أن ندعها تستريح، وبعد ذلك نناقش الموضوع..

ثم -بعد فترة سكون بدت وكأنها ساعات- أكد صوت الرجل:

-لقد أنقذت

وقد أجابه الصوت الذي تعرفه:

-حمدا لله. تبارك الله.

*****

عندما استيقظت "أليس" وجدت نفسها في حجرتها والشمس تلمع في مرح من خلال الستائر.

في بادئ الأمر، ظنته صباح يوم كسائر الأيام وأنها غاية ما في الأمر كانت قد عانت كابوسا.. لكن صرخة الألم التي أطلقتها عندما أتت بحركة لكي تجلس، أعادتها إلى الواقع.

نظرت حولها، محاولة أن تتذكر الأحداث وأن تفهم باي معجزة وجدت نفسها سليمة، معافية في هذه الحجرة، بينما آخر ذكرياتها كانت بين صخور، هناك حيث سقطت من أعلى الصخور. فتح الباب بهدوء إلى نصف "موارب"، ثم فتح أكثر، ليبدو وجه "إيتارك"، ثم يختفي ثانية، ويحل محله وجه "زافيبه" تقريبا في الحال.

سألها هذا الأخير:

-هل تسمحين لي بالدخول؟

ودون أن ينتظر الإجابة، ولج إلى الحجرة واقترب من السرير، وبابتسامة مصطنعة قال:

-حسنا الآن في إمكانك أن تفتخري بانك تسببت لي في خوف رهيب. كان يبدو متوترا، منهكا وكانت قسمات وجهه توحي بأنه لم ينم طوال الليل. كما أن عينيه كانتا تعكسان الأسى. وعندما حاولت "أليس" أن تجلس مرة أخرى، نادى:

-"إيتارك".. تعال لمدة دقيقة واحدة.

بمعاونة اليوناني -إذ أمسك كل منهما في حرص بذراع الفتاة- ساعدها على الانتصاب وسندها بالوسائد..

نطق ببعض الكلمات جعلت الخادم يذهب لكي يعود حاملا صينية تنبعث منها رائحة خبز محمص وعسل.

-الإفطار سوف يساعدك على استعادة قواك.. وأنت في حاجة

ماسة إلى ذلك.

قالت الفتاة:

-على أي حال، سيهدئ من جوعي: لي إحساس بأني لم أتناول طعاما منذ ثمان وأربعين ساعة.

أجابها "زافييه" وقد بدا حائرا:

-لكنها حقيقة. لقد مر يومان منذ الحادث.

نظرت إليه "أليس" دهشة، غفلت عن رفع يدها بما فيها إلى فمها، مع أنها كانت ترغب في تناول الطعام.

-اشرح لي يا "زافييه".. إن آخر ما أتذكره هو سقوطي وسط الصخور. سقطة مفزعة يبدو لي أنها دامت ساعات. ما الذي حدث لي منذ ذلك الحين؟ أتذكر أني رحلت بالأمس لزيارة الجانب الآخر من الجزيرة..

جلس الشاب أمام السرير وتناول قدحا.

-لا، يا عزيزتي.. أول أمس! إذا سمحت لي بتناول إفطاري معك، أعتقد أنه من الأفضل أن أبدأ بحديثي الشخصي. بذلك ستتمكنين بمساعدة ما سوف أسرده أن تتذكري ما حدث بالضبط.

دفعت بإبريق الشاي إلى الشاب وهي تتمتم:

-إني مصغية إليك.

-حدث أني -أول أمس، بعد انصرافك- وجدت نفسي بمفردي، لذلك أخذت القارب وذهبت لكي. اصطاد وسط البحر.

وعندما عدت فخورا بنفسي لأني صدت بعض السمك، كان النهار قد بدأ يميل، ووجدت "إيتارك" في انتظاري وقد بدا قلقا.

أخبرني في الحال بانك لم تعودي حتى هذه الساعة. شيء آخر كان يزعجه: قبل ذلك بساعة، عندما كان متوجها نحو المغسل،

لست أدري إذا كنت رأيته، وجد هناك "يوبو" الذي كان قد أغلق عليه بدون انتباه.. وقبل أن يمسك به، كان الكلب قد انطلق مثل المجنون في الاتجاه الذي سلكته.

فهمت في الحال أنه، أكثر من أن يكون قلقا على مصيرك -ولا شك في ذلك- كان يخاف من أن أعنفه على سهوه. طمأنته بأن الوضع ليس خطيرا:

تأكد أن الكلب سوف يعثر على السيدة وسيعودان معا.. في انتظارك، جلست على الشرفة وتناولت قدحا من الـ"أوزو"، هذا المشروب اليوناني فاتح الشهية اللذيذ الذي بطعم الينسون.

ابتسمت لأن "زافييه" كان قد جعلها تتذوقه ليلة وصولهما، وكانت قد أعجبت به، بقدر ما أعجبها الشراب المصمغ.

استطرد الشاب:

-لكن الوقت كان يمر والليل أقبل وأنت لم تعودي.. لم يكن ذلك أمرا مثيرا للقلق إنما عجيب.. لماذا تأخرت إلى هذه الساعة؟ ومع ذلك كنت لا أجد ما يمكن أن يحدث على جزيرتنا الضئيلة.. إلا إذا كنت من شدة الإنهاك بسبب حرارة الطقس، نمت واستيقظت في الغروب.

-وهي مع ذلك حقيقة. هكذا قاطعته الفتاة.

كانت في هذه الأثناء تشرب قدح الشاي وكان يبدو لها أن هذا المشروب المعطر يعيد إليها قواها.

-ومع ذلك ارتبكت بعد مرور نصف ساعة، أمر عجيب ألا تعودي حتى هذه الساعة.. أرسلت "إيتارك" للبحث عنك، ومكثت بالقرب من المنزل لكي أراقب ربما تعودين من طريق آخر. وكانت قد مرت ساعة تقريبا منذ انصرافه وبدأت أغلي من عدم الصبر، في كل لحظة أتوقع ظهورك، كل شعاع قمر أظنه أنت وكل

شجيرة أظنها "يوبو".. لكنها كانت كلها خيالات. من جانبي مجرد تهيؤات.

فجأة سمعت صوت عدو "جري". إنه "إيتارك" لكنه كان عاجزا عن الكلام لأنه جرى كثيرا وكان يبدو فزعا. في النهاية فهمت أنه سمع "يوبو" ينبح بشدة. كنت بالتأكيد قد سقطت من أعلى الصخرة. قال ذلك مؤكدا.

لكنه كان لا يستطيع التوجه بمفرده لإحضارك -هكذا وضح لي- لان الصخور -من جانب البحر- كانت تكوّن حاجزا أملس بحيث لا يستطيع أحد أن ينزل أو يصعد. كيف تصرف الكلب حتى إنه لحق بك. هذا ما لم يدركه. بالنسبة لي، أعتقد أنه عندما رآك في خطر قفز بلا تردد. إن الكلاب الألمانية تجيد القفز وهذا الكلب يحبك كثيرا.

وإذا بخربشة قوية على الباب قطعت الحديث على "زافييه" الذي لم يتمكن من الامتناع عن الابتسام.

-أعتقد أنه أتى بنفسه لكي يحكي لنا ما حدث.. وكيف كان تصرفه.

توسلت إليه الفتاة:

-افتح له.

لكن دون أن ينتظر، ضرب الكلب مقبض الباب و-ظافرا- دخل وهو يهز ذيله في أنين ونباح ومرح. ثم ألقى بنفسه على الفتاة التي قبلت فمه والدموع تملأ عينيها.

قالت:

-أعتقد أنه أنقذ حياتي.

-فعلا لقد أنقذ حياتك. هكذا أكد "زافييه" وبدونه كنا لن نعثر عليك إلا بعد فترة طويلة وربما بعد فوات الأوان.

ثم لاطف الكلب بدوره قائلا:

-لقد تصالحنا منذ هذه الليلة المفزعة.

صب قدح شاي آخر للفتاة وتناول واحدا آخر لنفسه.. غير أنه كان يقوم بهذه الحركات بطريقة آلية، مستعيدا في ذهنه، ذكرى هذه الليلة المأساوية.

-ولم يكن أمامي سوى حل واحد. وهو أن آخذ القارب وأذهب لإحضارك عن طريق البحر، ترى هل سنصل في وقت مناسب؟ هل سنجدك حية؟ شغلت القارب على أقصى سرعته، وعلى الرغم من ذلك، كنت أشعر بأني أسير مثل سلحفاة، وأني بطيء جدا. لحسن الحظ سمعنا نباح الكلب بعد ربع ساعة من انصرافنا.. توجهنا-وفقا للصوت- إليك. وبخلاف ذلك كنا سنلاقي الكثير من العناء في التوصل إليك. مع هذا الظلام الحالك.

غير أنه عمل أكثر من ذلك -أي الكلب- هكذا أضاف وفي صوته نبرة إعجاب. عندما عثرنا عليك كان "يوبو"، واقفا أمامك. وأثناء ما كان ينبح، كان يحتجزك على الشاطئ الضيق لكي يحول دون ابتلاع البحر لك بأمواجه.

شحبت الفتاة: بذلك فهي لم تخطئ، كانت قريبة جدا من الموت وإنها معجزة أنها مازالت على قيد الحياة..

اصطحبناك إلى المنزل، لكن عندما طالت غيبوبتك، أرسلت "إيتارك" لإحضار طبيب.

تذكرت الصوت الغريب الذي كان يتكلم الفرنسية بصوت أجش.

-لم يكن عندك أي كسر.. بأي معجزة تم ذلك؟

لاشك في أن الرمال هي التي خففت من سقطتك الرهيبة. لكن الصدمة النفسية الناتجة عن السقوط وتأثير الخوف أيضا،

جعلاك في حالة فقدان للذاكرة، وهذا ما تسبب لنا في قلق شديد. ولم تعودي إلى صوابك إلا مساء أمس، ونمت في الحال، مع ذلك.

تذكرت الصوت المجهول القائل:

-لقد أُنقذت..

والصوت الآخر وهو صوت "زافييه" يجيب:

-حمدا لله. تبارك الله.

هنا صمت "زافييه". لقد انتهى سرده للأمور. نظر إلى الفتاة، وكان في نظرته مزيج من الاطمئنان والخوف. استطرد:

-والآن، عليك يا "أليس" أن توضحي لي ما قد تم. ما الذي دهاك حتى تتسلقي هذه الصخور؟ وخاصة كيف سقطت؟

تفحصته وأجابت:

-أنا لم أقع من نفسي يا "زافييه". لقد دفعني أحد ما

*****

في الحال بدت الدهشة على وجهه.

في هذه الأثناء كان الكلب يرقد بينهما على فراء ماعز يزين الأرض، ينظر تارة إليه وتارة أخرى إليها وكأنه يحاول فهم ما يقولان. كرر "زافييه" بنبرة غير مصدقة:

-دُفعت؟ مستحيل يا "أليس". ليس من أشخاص على هذه الجزيرة عداي وإياك و"إيتارك" وهو فوق كل شبهة. وهذا الراعي العجوز الذي أوجدوا له مأوى من باب الشفقة. إنه يسكن هنا طوال حياته ويتعايش من قطيع الخراف الصغير الذي يرعاه.

وكان فكرة اخترقت ذهنه، سألها:

-بالمناسبة، هل تقابلت معه أثناء نزهتك؟

تمتمت في ملل وتراخ شعرت بأنه لا يصدق ما قالته له:

-في المرة الأولى، نعم.. بالأمس، ثم أفاقت وقالت: أول أمس.. لا.. كل شيء كان ساكنا. ثم أضافت:

-أذكر أني شعرت بالضيق من هذا السكون.

ودون أن يستمع إليها. كان "زافييه" يواصل فكرته:

-مؤسف، كان سيخبرنا إذا كان قد رأى أجنبيا أو غريبا.

لكن لو كان أحد ما قد نزل على هذه الجزيرة، لماذا يهاجمك؟ حتى إذا كان يرغب في سرقتك.. ألم يكن معك سوى هذه السلسلة الذهبية وها هي مازالت معك. ليس لك أعداء، هذا ما أعلمه.. وأقل من ذلك أننا في اليونان حيث لا يعرفك أحد..

ثم نهض مشغول الفكر وأخذ يتجول في الحجرة. كانت الفتاة تضع زبدا على قطعة توست ببطء، في الوقت ذاته تراقب "زافييه".

"يدعي أنه لا يصدقني -هكذا فكرت- ومع ذلك ما قلته أثار القلق في نفسه. لماذا، مادام واثقا بأنه لا يمكن أن يأتي أحد ويدفعني؟"

توقف "زافييه" عن السير. وبحركة فجائية، كشف عن الستائر، تاركا المجال لدخول الشمس. وكان هدير مياه البحر أقرب إلى مواء قط مدلل. وإذا بنسمة لطيفة تحرك الستائر..

كل شيء هنا "ترف وهدوء" كم إن ليلة الرعب تبدو بعيدة، غير مفهومة!

-غير مفهومة. هكذا كان يردد الشاب. لنر معا. إنك فتاة عاقلة يا "أليس". فكري، مستحيل "إيتارك" -وقد سبق وأخبرتك- إنه يخدم هنا مالك هذه الجزيرة منذ سنوات. هذا

بالإضافة إلى أنه كان لن يجد الوقت اللازم إذا -لست أدري بأي دافع من الجنون- حاول قتلك، وأن يعود حتى يكون بالمنزل عند عودتي!

"لقد اصطدمت بشيء ما جعلك تسقطين والخوف جعلك تتخيلين أنك قد دُفعت".

كانت لا تجيد رؤية ملامحه. كان منتصبا، فارعا، متينا، واثقا بنفسه، ذا بشرة برنزية. وكان يرتدي بنطلون جينز إلى نصف الساقين وكان بذلك يوحي بأحد قراصنة العصور القديمة.

أزاحت "أليس" صينية الإفطار وتراجعت إلى الخلف. كانت تشعر بالتعب، كما أن موجة حزن غير مسبب، كانت تسيطر عليها تدريجيا.

لمح "زافييه" عدم ارتياحها. أسرع إليها، وأمسك بمعصمها وقد بدا قلقا.

قال:

-يجب أن تستريحي الآن. لقد أوصى الطبيب بأن تلازمي الفراش على الأقل ثماني وأربعين ساعة. سأتركك لكي تنامي.

رفع الصينية وهو يضعها على الكومودينو، مال عليها.

-استندي إلي لكي أساعدك حتى تتمددي.. هنا.. ألا يؤلمك كثيرا؟

ثم أضاف ضاحكا:

-الزرقة في أماكن متفرقة.. إوزة صغيرة حقيقية لعيد الميلاد!

شعرت بأن الحمرة تعلو وجنتيها. من المؤكد أنه اضطر إلى تبديل ملابسها. لأنها الآن في قميص نوم!

ثم في هدوء أغلق الباب على نفسه.

شكرت الله. لابد أن يكون قد لمح حمرة وجنتيها وكذلك

الحزن الذي بدا عليها.

سمعت زفيرا تحت قدميها جعلها تصرخ فزعة.. ليس سوى "يوبو" هو الذي مكث بالقرب منها. إنه يحرسها وهي الآن لا تخشى شيئا.

شعرت بالنعاس يسيطر عليها مثقلا جفنيها. ما الذي قاله "زافييه" إذن؟

-آه، نعم إنها ارتطمت بشيء ما وأنه لم يدفعها أحد.. ومع كل قد يكون على حق؟

من ذا الذي يجد مصلحته في التخلص منها؟ لا أحد.. لا أحد؟ قد يكون ذلك غير أكيد!.

الفصل العاشر

"شاب له مصلحة شخصية -وهو التعبير السليم- في أن أختفي: "زافييه". بذلك ستؤول له الثروة بأكملها.."

وفي الواقع كانت الفتاة المسنة قد تطلعت إلى الحالة التي فيها قد يموت أحد الورثة؛ لذلك قالت إن الآخر يرثه.

"إذن، عندما أعرب عن أن وفاتي لن تفيد أحدا. يعتبر خطأ."

لم تكف "أليس" عن التفكير في هذه الفكرة طوال أربع وعشرين ساعة منذ عودتها إلى الحياة.

كانت ممددة على سريرها -هكذا كان قد نصح الطبيب عندما عادها مرة أخرى- تتناول وجبة الغداء. غير أن ما تناولته من أسماك تم صيدها في الصباح أي طازجة، بدت لها بلا طعم من شدة توترها وتفكيرها في هذا اللغز.. من الذي دفعها؟

لأنها -على الرغم من كل ما كان يقدمه لها زوجها من براهين- وعلى الرغم من أنها تظاهرت بالاقتناع برأيه- ظلت مقتنعة بأن شخصا ما حاول قتلها.

كانت النافذة المفتوحة تسمح بدخول الشمس.. وإذا بأحد طيور البحر يمر كالسهم مخترقا السماء، والبحر كان يردد أنغامه في سرور.

فجأة سمعت "أليس" صوت "إيتارك" الأجش، يجيب عليه "زافييه".. صوت أخاذ مليء بالسحر وذو سلطان.

وهل كان الرجل الذي يمتلك هذا الصوت، وهذا الإغراء الذي يصعب مقاومته، كفيلا بالاغتيال؟

أعادت المأساة كما لو كانت تحدث.. وربما أنها قد تمت. أولا

لم يكن "إيتارك" هو الذي حبس الكلب -كما أكد "زافييه"- إنما هو ذاته.. كان واثقا بأن "أليس" لن تعرف الحقيقة مادامت لا تتكلم اليونانية، كان إذن في إمكانه -بلا خوف- تأكيد ما يرغب في تأكيده.

كان يعرف بالضبط أين كانت الفتاة، مادامت هي ذاتها التي قالت له إنها تعتزم زيارة الجانب الآخر من الجزيرة.

كما أنه قال إنه أخذ القارب لكي يذهب للصيد وكان ذلك حقيقة بالتأكيد. وهي حيلة لا يمكنه الحصول على أفضل منها. بذلك كانت هذه الفكرة تسمح له بالقيام بنفس الرحلة التي قامت بها. وأن يجعل القارب يرسو عند خليج صغير، أن يختفي بين الصخور لكي يرى أين تتواجد الفتاة، كان بالنسبة لشخص رياضي مثله مثل لعبة طفل.

لا شك في أنه رآني، نائمة تحت أشجار الزيتون، فكان عليه انتظار يقظتي، ثم ملاحقتي وهذا كان ميسورا جدا. وعندما تسلقت الصخور، كان من السهل بالنسبة له أن يختفي بينها دون أن أنحه، وأيضا بقدر ما أني واثقة بأني بمفردي؛ لذلك كنت لا أشك في وجوده.

وبعد ذلك يدفع بي، يأخذ قاربه ويعود إلى المنزل وكأنه عائد من الصيد وهذا لا يقدم أي مشكلة.

"غير أنه حدث ما لم يكن يتوقعه وهو أن "إيتارك" اضطر إلى الذهاب إلى المغسل ويحرر الكلب.

"بدونه"..

شعرت بأنها أثلجت من الفزع وهي تفكر فيما سوف كان يحدث لها إن لم يكن "يوبو"، قد عثر عليها.

ولقد نطق بذلك "زافييه" ذاته: لكان البحر جرفها، وبذلك

يكون الموت محققا.

"أما بالنسبة له فإني أتخيله جيدا -وهو يشرب الـ"أوزو" في هدوء.."

"وفيما بعد، في الليل، اضطر إلى الخروج بحثا عني حتى يدهش "إيتارك" لأنه -وهو زوجي- لا يقلق على زوجته.

نعم، كان سيخرج بحثا عني.. لكنه كان لن يجدني".

الجريمة أكيدة!

لكن هل كان من الممكن أن يتظاهر بعدم معرفته للأمر إلى هذا الحد؟

سمع صوت قرعات على الباب. زمجر "يوبو" أولا وكان جالسا أسفل السرير، ثم -دون أن يتحرك- هز ذيله. إذن إنه "زافييه".. كان لا يبدو أن الكلب يشارك سيدته الشكوك و-دون أن تكون له نفس المودة التي عنده نحو "أليس" للشاب -بدا الآن متقبلا وجوده.

دخل "زافييه" في رشاقة ولا مبالاة.

-كيف حالك الآن؟

لم تتمكن من معرفة ما تخفيه عيناه عندما نظر إليها.

لكن هاتين العينين، عينا إنسان. كانتا تعبران على مشاركة ودية.. أو ألم يكن شعورا آخر تكشفان عنه؟

ولما كان من الصعب الأخذ برأي الفتاة فيما ظنت أنها تراه فيهما. أمن الممكن أن تكون هذه اليد الموضوعة عليها في حنان، هي التي أرادت موتها بلا شفقة؟

تمتمت:

-لست أدري. لم أعد أدري.

نظر إليها دهشا:

-ما الذي لا تدركينه يا "أليس".

تمالكت نفسها:

-آه. المعذرة، أعتقد أني بدأت أنعس..

-أنا من ينبغي أن يطلب منك العفو لأني أيقظتك. لكني كنت قد حضرت لكي أسألك. إذا كنت تجدين متعة في المجيء معي لتناول العشاء غدا عند رأس "سونيون" ابتهاجا بشفائك وهو أجمل الأماكن التي أعرفها. إن تغيير مكان إقامتك، والاختلاط، والرقص، كل ذلك قد يفيدك ويجعلك تنسين.

تردد..

قالت في جفاف:

-آه. أعلم ما تفكر فيه.. أن أنسى هواجسي.

-إنك تخطئين يا "أليس". إني أتخذ كل ما سمعته منك بكل جدية، أكثر مما تتصورين..

"ماذا يقصد بذلك؟ لو كان هو الذي حاول قتلها، هل يهتم الآن؟ في هذه الحالة، ليس فقط أنه أصبح بالنسبة لها خطرا مميتا، إنما سوف يستخدم مزيدا من الحيل، ويجب ألا تثق بأي نظرة ولا بأي حركة..

آه. ومع كل هذا يجعلها غير مبالية. هكذا فكرت."

لقد ملت كل شيء. إذ إن حياتها وهي في عامها التاسع عشر قد تحولت فجأة إلى ما هو غير محتمل، إلى حد جعلها لا تهتم إذا كانت تعيش أو تموت. بل إنها سئمت الحياة.

ابتسمت، لكن دون أن تتحقق من أن هذه الابتسامة تحتوي على شيء من الحزن لا يخفى على "زافييه". تقست قسمات وجهه واستطرد بصوت به نبرة قاطعة:

-من البديهي، إذا كان ذلك يمنحك سرورا بأن تخرجي معي

مرة، وإلا..

ثم قام بإشارة مبهمة..

-بلى، هكذا أجابت "أليس" التي كانت لا ترغب في أن تترك له الفرصة حتى يرى الأسى باديا عليها، بلى يا "زافييه" إنها فكرة رائعة.

ألقى إليها نظرة، ساهما. ثم رفع كتفيه وقال:

-إذن إلى مساء غد أيتها الفتاة الصغيرة.

ولما رآها تنظر إليه دهشة، أضاف:

-ويجب أن أتغيب هذا المساء، لكن أعتقد أنك لن تخافي لأن معك "إيتارك" وخاصة كلبك.

*****

كانت "أليس" في قميص النوم الأبيض-ومع شعرها الذي يغطي كتفيها بوشاح من الأسلاك الفضية-تبدو كأنها شبح مرتجف من الممكن أن يغشى عليها بين الثانية والأخرى.

نهضت لكي تتحقق من قدرتها على الوقوف.

"مازالت مهزوزة جدا. هكذا فكرت، لكنها أعراض سوف تزول، غدا سوف أستطيع الذهاب للعشاء مع "زافييه". من الأفضل ألا أدعه يلاحظ شكوكي."

كان "يوبو" يلاحظ كل حركاتها.. لاطفته.

-لا، لن أخشى شيئا معك يا كلبي. لقد أثبت لي إخلاصك. بالإجماع، لن يتسبب لها ذهابها إلى رأس "سونيون" في أي ضيق، بل إنه سيمنحها شيئا من المتعة..

أخيرا ستشاهد اليونان، مهد الفلسفة الإنسانية التي لا تعرفها

إلا في الكتب وطالما حلمت بها.

فكان ذلك يمنحها سرورا يكاد يكون طفوليا.

وكأنها هدية عيد الميلاد. هذا إن لم توجد أي مسببات للقلق.

كانت ترغب في مقاومة هذه الأفكار. ومع كل، ربما -لاشك في ذلك- أنها مخطئة. هل هي مخطئة في الشك في "زافييه"؟.. إنه يتصرف مثل رفيق ممتاز منذ وصولهما إلى "زانتوس". وليس ما يدفع "أليس" -حتى هذه اللحظة التي سقطت فيها من أعلى الصخرة- إلى التفكير في أنه قادر على التمني بأن يراها مختفية.

ها هي -من أجل حادث واحد قد تكون وحدها مسؤولة عنه- تنسج في ذهنها أفكارا غبية وتنسب إلى رجل بعيد كل البعد عن التفكير في الشر، نوايا إجرامية.

لم تتمكن "أليس" من الامتناع عن الضحك.

إن له العديد من العيوب حتى إني أجعل منه أيضا سفاحا. كثيرا ما نصحتني أمي بعدم وضع ثقتي بأفكاري الخيالية، ولم تكن مخطئة في رأيها.

ها هي كتلة الحجر الصغيرة التي سقطت من المعبد موجودة بالضبط في المكان الذي كانت عليه قبل سقوطه بثانية واحدة..

كانت قد غفلت عن هذا الحدث الأول الذي نسبته للمصادفة. نزهتان على انفراد: نزهتان كفيلتان بأن تكون كل منهما سببا في موتها.

أليست حقا-هنا- ثمار خيالها؟

*****

أعتقد أنه سبق وقيل لك إنك جميلة إلى حد كبير. كانت

-وقد خرجت من حجرتها- قد أقبلت إلى الشرفة حيث كان "زافييه" في انتظارها لكي يصطحبها إلى "رأس سونيون". تفرس فيها، ومن جانبها وجدت صعوبة في احتمال نظرته، تلك النظرة التي لشاب معجب، يعجز عن إخفاء ما توحيه إليه فتاة جميلة من أحاسيس. نظرة لم تعتدها من قبل.

لم يكن لوالدتها أصدقاء عديدون وكانوا كلهم أزواجا من نفس جيل "مادلين".

أما من كانوا في مثل سنها من الأولاد وهم طلاب مثلها، فكانوا يرددون لها من حين إلى آخر:

-إنك مع ذلك فتاة جميلة.

غير أن هذا التقدير الطفولي لا يتساوى مع هذه النظرة التي لهذا الشاب. أما عن عبارة الإطراء التي وجهها إليها من الممكن أن تكون عادية، لكنها شعرت بها، شعرت بأن لها طابعا آخر لا يوصف وذا سلطان. فكانت -مثل موج البحر- تنتقل من فكرة إلى أخرى. اعتراها إحساس بأن فستانها الخفيف الذي من الموسلين وليس فقط وجهها هو الذي لفت نظر "زافييه".. رغبت في الهروب من نظراته. لكنها لم تتمكن من ذلك..

وكان هو الذي بدأ بالامتناع عن النظر إليها، بأن حول عينيه عنها وأخذ يتأمل البحر:

-إذا شئت أن نصل مع غروب الشمس، يجب أن ننصرف الآن.

اتجها إلى حيث كان القارب موجودا.

رفعت فستانها الطويل في حركة رشيقة حتى لا يتسخ من الخشب الموضوع لكي تمر عليه.

وكان "زافييه" يراقبها مبتسما. ولا جدال في أنه أعجب بهذه

الحركة الأنثوية. دفعها ببطء:

-دعيني أمر أمامك. لقد دار القارب على المرساة ويجب أن أعيده إلى مكانه.

انتظرت "أليس" أثناء تقدم "زافييه". وصل إلى آخر الشاطئ وتأهب لجذب القارب. وإذا به يختفي.

أطلقت "أليس" صرخة فزع أولا، ثم لم تتمكن من الامتناع عن الضحك، عندما شاهدت شابا يخرج من الماء فزعا، مبتلا لكنه سليم. إذ إن عمق المياه في هذا المكان لا يتجاوز المتر ونصف المتر. وبدوره -وهو عائد نحو الشرفة- أخذ "زافييه" بنوبة ضحك أمام هذا الموقف المضحك، اكثر من أن يكون مأساويا. ثم أخذ يدور على الشاطئ مثل الكلب.

أردف:

-عليّ الآن أن أبدل ملابسي، أمامي دقيقتان فقط.

وبعد بضع دقائق عاد في ملابس نظيفة وكان شيئا لم يحدث غير أن شعره المبتل كان يذكر بهذا الحمام الإجباري.

-لقد أخذت وقتا أطول مما كان يلزم لأني قلت لـ"إيتارك" أن يقوم بإصلاح الجسر العائم. ومع كل، هذا يرجع إلى إهماله: كان ينبغي له أن يراقبه لأنه يتآكل رويدا رويدا من تأثير المياه.. وهذه هي النتيجة.

نظر إلى "أليس" وفي عينيه شعاع مرح.

-لكن.. بالنسبة لك -كيف ستتصرفين مع هذا الفستان الرائع، وكذلك هذا الحذاء لكي تصلي إلى القارب؟ إني لا أستطيع أن أقربه أكثر من ذلك من الشاطئ.

وهي حقيقة: لم تفكر "أليس" في ذلك. إذ كان لابد من قبول وصول المياه حتى إلى الركب لبلوغ القارب. مع بنطلون، أمر سهل

لأنه يكفي قلب ساقي البنطلون لكن مع هذا الفستان..

بدا عليها الضيق والأسف إلى حد جعل الضحك يعاوده..

-لا تقلقي يا عزيزتي. فلن تكون المرة الأولى التي أعاون فيها فتاة جميلة على الصعود إلى قارب.

وهو أيضا كان في ملابس غاية في الأناقة. قميص أسود يكشف عن صدره حيث لمعت سلسلة ذهبية وسط شعر الصدر الأشقر. وكان البنطلون من نفس اللون.

بلا تردد، قلب الساقين حتى الركبتين، ثم التفت -وقبل أن تبدي أي شيء -كان -قد أمسك بالفتاة.

دهشت عندما وجدت نفسها بين ذراعيه. كان يحملها بسهولة وكأنها أخف الأثقال، يتقدم بخطى واسعة في البحر متجها نحو القارب.

وإذا بـ"إيتارك" -وكان على الشاطئ ينظر إليهما وهما يرحلان- يصيح بعبارة باليونانية مبديا ابتسامة عريضة.

مال "زافييه" بوجهه نحو وجه "أليس" حتى إن شفاههما كادت تلتصق ببعضها وترجم لها ما قاله "إيتارك":

-إنه يقول لي إنني أشبه بـ"أوليس" بطل الـ"أوديسا" اليوناني وهو يحمل حورية..

الفصل الحادي عشر

-أليس البطل "أوليس" جميلا؟ ذا جمال يفوق البشر، يكاد يكون ملاكا.. إن صح القول.. إن المرء يتخيل هنا بسهولة عظمة اليونان القديمة.

كان "زافييه" واقفا عند مقدمة القارب، وكان أشعة الشمس وقت الغروب تكلله بهالة ذهبية.

وقفت الفتاة تتطلع إلى المعبد في إعجاب. كان يبدو كأنه إنبثق من الأرض لكي يرتفع نحو السماء نقيا، خفيفا.. قال "زافييه":

-من أجل ذلك كنت أرغب في الوصول إلى هنا مع غروب الشمس. لأن ما تبسطه الشمس من ألوان على السماء، تمنح كل قيمتها إلى هذا المكان حيث تحيا روح القدماء.

وكان يبدو مبهورا مثلها لهذا المشهد ومع ذلك كان يوحي إلى الفتاة بأنه يعرفه جيدا.

مرة أخرى تفرس فيها والابتسامة على شفتيه.

-منظر جميل جدا، أليس كذلك؟

-جميل جدا- هكذا قالت بصدق.

وخلال بضع ثوان، اشتركا معا في هذا البهاء الذي بقدر ما هو من صنع الطبيعة فهو كذلك من صنع فكر وأيد بشرية.

ثم اختفت الشمس في البحر في بهاء عظيم ومجد باللونين الذهبي والقرمزي. وإذا بـ"أليس" تفكر -في حزن وفي فمها طعم الرماد- أن اللحظة القصيرة التي شعرت خلالها بأنها قريبة من "زافييه" لم تدم أكثر من فترة غروب الشمس، والآن وقد انتهى

المشهد، تواجدت مع هذا المجهول من لا تستطيع وضع ثقتها به.

فكرت في مرارة: "وما القول في أننا في "رحلة عرس" ويالها من رحلة تحسدني عليها زوجات شابات عديدات، ومع ذلك، كم كانت تفضل أن تكون في أي منظر ريفي عادي، في أي حجرة كانت، أفضل من هذا البلد الرائع، في هذا المسكن الفاخر، ولكن مع الرجل الذي تكون قد أحبته، من تضع فيه ثقتها كاملة، وإلى من كانت ستعطي ذاتها في سرور.

*****

أما المطعم الذي دخلته "أليس" مع "زافييه" فكان فاخرا جدا. فهو لا يقارن بهذه المشارب حيث يأكل الناس جبن الرعاة، ولحما مشويا ويشربون الشراب المصمغ.

-عندما نذهب إلى "أثينا" غدا -أو بعد غد، عندما يحلو لك -سوف أصطحبك للعشاء في أحد هذه المشارب. إنها مطاعم شعبية مليئة بالبهجة والحياة. هناك ستشاهدين الرجال وهم يرقصون رقصة الـ"سيرتاكي" ويغنون بمصاحبة عزف على الـ"بوزكي".

لا شك في أنه أقل تطورا عن هنا، لكن فكرت في أنه بالنسبة لأول خروجك بعد الحادث الذي ألم بك، من الأفضل اختيار مكان هادئ ومريح.

أبدت موافقتها بابتسامة، بدت حزينة رغما عنها. ترى هل لاحظها "زافييه"؟ قطب حاجبيه، وتقسّت قسمات وجهه.

كان الرواد أمام الموائد المجاورة لمائدة "أليس". و"زافييه" يتحدثون بكل اللغات، عدا اليونانية..

إنه مطعم فاخر للسياح. ودون أن تلتفت إلى أن جمالها يجذب إليها أنظار الرجال، كانت "أليس" تتطلع بإعجاب إلى ملابس السيدات، وأناقتهن، وتسريحات الشعر المختلفة المعقدة.. وثقتهن بأنفسهن.

"لابد أنني أبدو مجرد قروية مع فستاني هذا وشعري المنسدل على كتفي". هكذا فكرت "أليس".

مرة أخرى أعجبت بـ"زافييه". من أين اكتسب هذه الأناقة وهذه الرشاقة الممتلئة سحرا؟ كل ما فهمته عنه عما سرده لها، أنه كان يعمل مزارعا في "أستراليا". مهنة لا يمكن أن تتفق مع رجل من هذه الطبقة.

ثم بعد قليل وكأنهما أحرجا الواحد قبال الآخر، ضعفت الأحاديث المتبادلة بينهما.

مقابل ذلك كان "زافييه" يتناول الشراب بدون إضافات، وكان من عادته أن يتناول الـ"أوزو" بمثابة فاتح شهية، وكأسا أو كأسين من الشراب مع الأكل.. ليس أكثر من ذلك.

أشار بإصبعه لكي يبدل الزجاجة الفارغة.

ومع ذلك لم تكن الفتاة قد أنهت كأسها الأول. "إنه يشرب -هكذا فكرت- وكأنه يرغب في نسيان أمر ما." حولت نظرها عنه لكي تنتقل به إلى امرأة دخلت في هذه اللحظة.

إنسانة رائعة أقرب إلى نجوم هوليود. مزيج من "جريتا جاربو" و"مارلين مونرو": فتاة رائعة الجمال، خلقت للترف، والمتعة والحب. كان شعرها -الأشقر الأحمر المرفوع إلى أعلى في شينيون- يزيد من طابعها الروماني.

ولما كان فستانها مكشوفا، رفعت -بحركة رقيقة- حول كتفيها "جاكيت" قصيرا من الفراء الأبيض لا شك في أنها لم

تكن في حاجة إليه، لكنها حركة تسمح بإظهار يد رائعة ذات أنامل طويلة تنتهي بأظافر مطلية بعناية باللون الأحمر.

كانت تنتظر بفارغ الصبر فارسها الذي لابد أنه كان يدفع أجرة التاكسي الذي أوصلهما.

شعرت "أليس" بأن هذا القلق مصطنع وأن الفتاة مبتهجة لبقائها هكذا محط أنظار وإعجاب زبائن المطعم.

فجأة أطلقت صيحة دهشة وغفلت عن الشاب الذي يرافقها واتجهت نحو مائدة "أليس" الأمر الذي دهشت له هذه الأخيرة.

- "زافييه".. كارسينميو (كيف حالك)! آه. يا لسروري بلقائك هنا... هكذا قالت بنبرة عذبة. لم أكن أعلم أنك وصلت.. كيف يحدث أنك هنا؟

وكانت كلها: من نظرات إلى حركات وابتسامات توحي بأنها تتجه نحو محبوبها.

ثم بحركة متكلفة مدت يدها إلى زوج "أليس". أبدى هذا الأخير دهشة للحظات و لمحت "أليس" تحرك هذه العضلة التي في زاوية فمه، علامة للدهشة أو التأثر أو العصبية لأنها سبق ولمحتها قبل ذلك عنده.

لكن ها هو الآن واقف، ثم انحنى قليلا لكي يقبل اليد الممدودة له.

وقفت "أليس" دهشة تتأمل هذا الثنائي. وفجأة شعرت بالغيرة من هذه الفتاة، من جمالها، ومن أناقتها، ومن مشيتها.

وهذه الأخيرة تفحصت الفتاة في فضول. كانت تنتظر -دون أدنى شك- أن يقوم "زافييه" بتقديم إحداهما للأخرى.

تأخر عن القيام بذلك، في حدود عدم اللياقة والأدب، "لا شك في أنه يخجل مني، وهو يكره وجودي هنا، إني واثقة بأن

هذه الفتاة إحدى محظياته، يكفي النظر إلى الطريقة التي تنظر إليه بها."

ثم أعلن "زافييه":

-الكونتيسة "جرازياني".. زوجتي.

نظرت الكونتيسة إلى "أليس"، في دهشة غير مصطنعة:

-زوجتك؟ هكذا صاحت.. أنت متزوج؟ آه، أمر عجيب.

ثم أطلقت ضحكة عجيبة:

-من كان سيفكر أن "زافييه دارتيه" سوف يتزوج ذات يوم. شيء لا يصدق.

"ليس إلى هذا الحد"، هكذا كانت الفتاة ترغب في النطق بذلك. إن هذه الزيجة جلبت له ستمائة مليون سنتيم."

شعرت بالثورة تتملكها أمام نظرات هذه الفتاة.

غير أن اليد ذات المخالب الحمراء امتدت نحو "أليس"، وكان لابد لها أن تظهر كسيدة مجتمع، مبتسمة، وألا تظهر انحراف مزاجها ولا غيرتها.

مدت يدها بدورها مبدية ابتسامة عادية.

-متزوج.. هكذا كانت تكرر الكونتيسة وهي لا تكف عن التفرس في "زافييه"، وكان هذا الأخير يقف جامدا مبتسما أمر غير متوقع.

ثم التفتت إلى "أليس" قائلة:

-لا تتحاملي علي يا سيدة بأن أدهش هكذا. حقا لابد أن يكون جمالك -"لو استطاعت أن تعضني لكان في ذلك سرورها". هكذا فكرت "أليس" -قد غزا قلب هذا الصبي!

وكانت تشير بإصبعها إلى "زافييه".

- إنه كسب، نصرا! تهاني.

تحولت نحو الشاب:

-هل أتعشم في أن -على الرغم من ذلك، في ذكرى صداقتنا القديمة، ثم أبدت ابتسامة لاشك في أنها تضيف معنى إلى هذه الكلمة -تدعوني الآن إلى الرقص معك؟

بدا "زافييه" مبتهجا وفي نفس الوقت ثائرا لهذا اللقاء. انحنى مرة أخرى، أردف:

-بالتأكيد.. ليس لأني رجل متزوج، أنسى ماضيّ.

اقشعرت "أليس" أمام وقاحة هذه اللهجة. إنه لا يستطيع التعبير بما هو أفضل من أنه أحب هذه الفتاة وربما أنه مازال يحبها.

وكانت العينان الخضراوان تتفحصان الكونتيسة -وكان واضحا أنهما معجبتان-بينما الصوت المعبر يواصل:

-إن ماضيّ كثيرا ما كان ممتعا.

التفتت الكونتيسة "جرازياني" نحو رفيقها، الذي وصل منذ قليل. تموجت-أكثر من أنها كانت تمشي -نحو المائدة التي يجلس خلفها رئيس خدم موقر.

وقبل أن تجلس أشارت إلى "زافييه": إلى لقاء قريب. كان "زافييه"، قد جلس، التفت نحو "أليس" وقال موضحا بين الخجل والرشاقة:

-لم أتوقع مقابلة "أنجيلينا" هنا.. إنها -عادة- لا تصل قبل شهر تموز "يوليو".

أجابته "أليس":

-يبدو أن لديها الكثير لكي تقوله لك.

أبدى "زافييه" حركة غامضة:

-منذ سنتين ربما ثلاث سنوات، لم أرها.

-وهي كذلك تبدي أنها تتذكرك!

وأمام ما بدا على زوجها من مرح، ندمت "أليس" في الحال على جملتها الأخيرة وخاصة على اللهجة التي تكلمت بها. "سوف تعتقد أني غيورة منها"! هكذا فكرت ثائرة. حقا كان لا ينقص سوى ذلك!"

ولما كانت وجبة العشاء موشكة أن تنتهي، حضر فريق من الموسيقيين وبعض الأزواج قاموا للرقص.

"زافييه" الذي كان قد شرب قبل ذلك قدرا ليس بالقليل تناول عصيرا-وهو شراب يوناني- مال على "أليس" وسألها في مودة:

-أترغبين في الرقص؟

وإن كانت النبرة أدبية، إلا أنها كانت أيضا غير مبالية. "إنه يدعوني؛ لأنه لا يستطيع القيام بغير ذلك. هكذا جاء تفكير الفتاة، لكن الحقيقة هو أنه يرغب في الاتصال بهذه الفتاة."

لذلك-على الرغم من أنها كانت ترغب في أن تقول "نعم"-أجابت:

-لا. شكرا.

أردف:

-إذن في هذه الحالة لن تتحاملي علي إذا دعوت -بناء على طلبها- الكونتيسة "جرازياني".

وفي الحال نهض متجها نحو الفتاة التي تبتسم له واثقا بنفسه، غير مبال.

أما "أليس" وقد أصبحت بمفردها أمام المائدة، فقد شعرت بالدموع تملأ عينيها.

"ما الذي أبدو عليه؟ هكذا فكرت في مرارة.. حديثة الزواج تهمل من أجل سيدة سابقة. إن زواجنا فعلا ليس إلا عن مشارطة وكان على "زافييه" أن يحترم شروط هذا الاتفاق."

أخذت تراقب الثنائي الراقص. الكونتيسة تصغي إلى "زافييه" وهو يتحدث إليها.

"لاشك -هكذا حدثت "أليس" نفسها- حتى إنه يبدو بمثل هذا المرح- أنه يستعيد بعض الذكريات أو أنه يسخر مني! لكن ما الذي تتوقعه من رجل مثله.." هو هذا المزارع الآتي من "أستراليا"، من له مظهر رجال الطبقة الراقية، من له مشية رجل اعتاد ارتياد أماكن الطبقة الراقية، والذي كانت فتاته بالتأكيد هذه الكونتيسة الإيطالية الجميلة. رجل غريب حقا!

ماذا كانت حياته حتى ذلك اليوم الذي تقابلت معه فيه عند السيد "بونو" المحامي؟ حتى ذلك اليوم الذي أصبح فيه فجأة رجلا ثريا..

شعرت بأنها قبلة أنظار كل قاعة المطعم، إنهم يلقون إليها نظرات الشفقة الممزوجة بالازدراء. "مسكينة أيتها الشابة" كأنهم يقصدون ترديد ذلك. ها هي بمفردها أمام المائدة بينما زوجها يراقص هذه المخلوقة الرائعة.

وإذا بشخص مجهول يأتي وينحني أمام "أليس" طالبا منها إذا كانت ترغب في الرقص معه.

رفضت، قائلة: "لا" وها هي الآن تندم على ذلك. كان ينبغي لها أن توافق.. أن تبدو جميلة، مرحة، أن تمنح الإحساس بأنها تسخر من أن زوجها يرقص مع أخرى.

فكرت في تلك اللحظة التي كانا فيها أمام المعبد وأشعة الشمس تغرقهما، اتحدا في هذا الجمال. أم أنها تخيلته؟

كيف صدقت -ولو لبعض ثوان- أن هذا الغريب يصبح قريبا هكذا منها؟

بحثت عنه بنظرها كان يرقص والكونتيسة تضع وجنتها على

وجنة "زافييه". وكانا يتصرفان وكأنهما بمفردهما في العالم..

*****

أخذت "أليس" تجري في شوارع القرية النائمة التي حولها القمر إلى ديكور مسرحي.

كانت ممسكة بحذائها في يدها -لقد كُسر كعب الحذاء أثناء جريها، لأنها كانت هاربة- كانت تبحث عن المكان الذي كان "زافييه" ممسكا بين ذراعيه بفتاة أخرى كرهتها دون أن تعرفها. شعرت بأن قلبها يتمزق..

ثم نهضت وقتئذ ببطء وهدوء متناه.. على قدر استطاعتها وكأنها ترغب في استعادة جمالها- ودون أن يلمحها أحد ولا حتى "زافييه" - هو أقل من أي شخص آخر- ثم غيرت من اتجاهها وتوجهت نحو باب الخروج.

وفي الخارج، كانت قد أخذت تجري مثل المجنونة، فكان كعبا حذائها العاليان يصطدمان بالأحجار القديمة التي بالشارع الضيق والتي صارت غير منتظمة مع مرور الزمن، هاربة من يأسها، ومستقبلها، والحياة الخالية من المرح التي كانت في انتظارها، هاربة من ألمها وهو دائما يلاحقها.

وكانت تنتحب مثل طفلة دون أن تدري إذا كان بسبب هذا الحزن الرهيب، أو بسبب هذا اليأس الذي شعرت به، "لكن لماذا؟ لماذا؟.." هكذا كانت تتساءل وسط دموعها، عندما رأت هذه الفتاة بين ذراعي الرجل الذي لا يعتبر، والذي لن يكون أبدا زوجها.

لمحت بين مركبي صيد، كتلة داكنة وهي القارب. ستعرف

كيف تقوده حتى إلى الجزيرة. كانت قد رأت "زافيبه" ولم يكن بالأمر الصعب.

وفي هذا البلد الغريب، ليس لها فيه مأوى سوى هذا المسكن حيث كانت تشعر بأنها ليست في منزلها.

ولما كان اليأس يملأ قلبها، أقلعت إلى "زانتوس".

الفصل الثاني عشر

عندما شاهدت "أليس" نفسها في المرآة، لم تتمكن من الامتناع عن إطلاق صرخة: وجهها منتفخ، عيناها متورمتان، بشرتها بها بقع حمراء، إنها تبلغ من العمر مائة عام. أين الفتاة الجميلة التي اعتادت أن تراها في المرآة؟

كانت الساعة الرابعة صباحا عندما وصلت إلى "زانتوس". ولم يكن "إيتارك" قد أصلح الجسر العائم بعد، فاضطرت إلى الإبحار مسافة عدة أمتار تفصلها عن الشاطئ.

وعلى الرغم من أنها كانت قد ضمت فستانها حول خصرها، إلا أنه ابتل من الماء واتسخ أيضا، لكنها الآن أصبحت لا تبالي بشيء. لحسن الحظ، كان "يوبو" في انتظارها.

ألقت بنفسها على سريرها عندما وصلت، وأخيرا نعست بعد أن واصلت البكاء لفترة طويلة.

من البديهي لم يكن "زافيبه" قد عاد عندما استيقظت. ومع كل، لم تكن العودة في الليل في استطاعته، مادامت أخذت القارب.. ولم يتمكن من استئجار مركب إلا في الصباح.

لكن كانت الساعة قد بلغت العاشرة ولم يعد حتى الآن. ولكي لا يلاحظ "إيتارك" عينيها المنتفختين، وضعت نظارة شمس تخفي نصف وجهها، قبل المرور على الشرفة حيث كانت وجبة الإفطار مقدمة.

تألمت عندما وجدت أن قدحا واحدا كان موضوعا على الصينية، فتقلص وجهها. إذن هذا يشير إلى أن الخادم على علم بأنها عادت، لكن "زافيبه" كان قد مكث على اليابس. إن اليوناني

على علم بكل شيء، لا شك في ذلك.

مرة أخرى، قد جُرح كبرياؤها. ماذا ستكون فكرة الخادم عن هذا الثنائي الغريب وهما عبارة عن زوجين لكل منهما حجرته الخاصة وها هي الزوجة تعود، في حين أنهما رحلا للعشاء معا، عشاء عروسين؟

كان البحر يتلألأ بالأضواء، غير أن "أليس" لم تشعر بالرغبة في الاستحمام.

أخذت تلقي بقطع التوست التي كانت تقطعها بعصبية إلى الكلب الراقد تحت قدميها. وكانت في هذه الأثناء تثبت نظرها إلى الأفق، من خلف نظارتها السوداء.

ما الذي كانت تنتظره دون أن تعترف به لنفسها؟ أهو القارب الذي سيعيد "زافييه"؟ فكرت في ثورته، عندما لم يجد القارب وخشيت ذلك. هزت كتفيها، ومع كل ماذا يهمها؟

*****

وها هو "زافييه" لم يعد للغداء.

وكان "إيتارك" قد تناول حديثا طويلا باليونانية مع الفتاة. لاشك في أنه كان يسألها عن مكان سيده. وكانت قد أشارت له بأنها لا تفهم كلمة واحدة من كل ما قاله. وكما فعل في وجبة الإفطار، كان أيضا قد وضع أدوات مائدة لشخص واحد. من أجل الغداء.

غداء، لم يكن للفتاة قدرة على تذوقه. ولكي لا يدهش الخادم لانعدام شهيتها-إذ لابد أنه تساءل كثيرا عن ذلك-منحت الكلب الضخم فرصة الاستفادة من طعامها،

مبتهجا لهذه الفرصة الطيبة.

ثم تمددت على مقعد طويل بعد تناول الوجبة وأخذت تقرأ كتابا كانت لا تفهم فيه شيئا، وكانت في كل مرة تشاهد قاربا على البحر، كانت تضطرب.

ما الذي حدث لـ"زافييه"؟ هل لن يعود ويتركها بمفردها على هذه الجزيرة المهجورة، ومع خادم لا تفهم كلمة واحدة مما يقول؟

أصبحت تمقت هذا الرجل الذي يسخر منها هكذا.. لكن كلما تذكرته وهو يرقص مع الكونتيسة ووجنته بالقرب من وجنتها، كانت الدموع تملأ عينيها، رغما عنها، بحيث إنها كانت تعجز عن السيطرة على نفسها.

هل إنها هذه هي الحياة التي كانت تنتظرها مع رجل جسور و..-وهو ما اكتشفته حاليا- ملاحق للنساء! إقامة جميلة في الواقع! وبذلك تأكدت من أنه قد يكون السفاح الذي تخشاه. الموت أفضل من هذه الحياة التي يُرثى لها.

*****

ثم حدث أن بدت في الأفق وقت الغسق، نقطة سوداء، أصبحت قاربا بعد قليل، ويتقدم مسرعا نحو الشاطئ.

لم يكن لدى "أليس" أي شك في أنه "زافييه".

لقد ميزت قوامه بوضوح، على ضوء أشعة الشمس. أوقف القارب على بعد عدة أمتار من الشاطئ وقفز إلى البحر بحرارة.

لقد رأته، البنطلون مشمر، يتقدم في مرونة وتراخ وكأنه فهد واثق بنفسه، هادئ لأنه يعرف أنه قادر على القفز على فريسته.

ترى هل ستكون هي فريسته؟

ترى هل هي إذن -وإن كانت تنكر ذلك- تعشقه حتى ترتبك إلى هذا الحد، لتصرفاته التي أبداها الليلة الماضية و-بطريقة أخرى لكن مربكة أيضا-عند عودته كذلك؟

توقف "زافيبه" على الشاطئ لكي يتحدث مع "إيتارك" الذي أتى للقائه. رأت الفتاة هذا الأخير الذي يصعد الجسر العائم الذي كان يصلحه طوال فترة بعد الظهر والذي كان منتهيا تقريبا.

ذهب "زافيبه" معه لاختبار العمل. وكانت بعد ذلك مناقشة بين الرجلين للحظة، توجه من بعدها اليوناني إلى المطبخ والشاب أخذ طريقه إلى "أليس".

كان القمر يرتفع وينشر ضوءه البارد على البحر. وكانت رائحة الزهور تعطر الشرفة.. وبم يهم كل هذا السحر؟

فجأة شعرت الفتاة بالخوف. ماذا سيقول لها؟ أي تأنيب سيوجه لها؟ لم يكن الشخص الذي يغفر لها المقلب الذي قامت به برحيلها بالقارب.

وهي، أي عذر سوف تقدم؟ إنها تمقت الرجال عديمي الأدب الذين يتصرفون كما تصرف ليلة أمس؟ هل هذا العذر كاف؟ تخيلته -في الليل- وهو يبحث عنها أمام النظرات الساخرة التي تلاحقه بها "أنجيلينا". إلى أين ذهبت الزوجة الخجول إلى هذا الحد، ومن تتخلى عنه بسهولة؟

وأخيرا عندما وصل إلى الميناء لكي لا يجد فيه البخت الصغير.

"لابد أن يكون ذلك -هكذا فكرت "أليس"- قد أثاره أكثر من اختفائي."

ومع ذلك-بخلاف ما كانت تعتقد- تقدم نحوها مبتسما..

وفي حركة التراخي المصطنع المألوف لديه، ألقى بنفسه في مقعد ذي مسندين أمامها:

-أرى بكل سرور أنك عدت بحالة جيدة. وأن قيادة مثل هذا القارب لا تتجاوز لعبة أطفال، وكنت واثقا بأنك سوف تجيدين التصرف في ذلك.

أخرج بعد ذلك من جيبه علبة السجائر وقال في أدب:

-أترغبين في تناول واحدة يا "أليس"؟

وقبل أن ينتظر ردها أخرج واحدة وأشعلها في هدوء، وواصل:

-على أي حال أشكرك؛ لأنك بذلك عملت على إبعاد الضيق عني باضطراري إلى اختصار مدة سهرتي لكي أعيدك إلى المنزل..

و-على أي حال- لقد كان رحيلك على الطريقة الإنجليزية لمحة ذكاء من جانبك.

نظرت إليه وقد كانت عاجزة عن النطق. كانت "أليس" بالتأكيد تتوقع الكثير.. تتوقع كل شيء إلا هذه الوقاحة والسلاطة المفزعة.

استطردت وفي نبرتها شيء من التأثر:

-أنا لم أتصرف لا من أجل تقديم خدمة لك ولا بروح التضحية كما يبدو أنك تعتقد. إنما ببساطة؛ لأنك تصرفت مثل شاب عديم التربية. لأنه لا ينبغي أن يترك الشخص -كما فعلت- سيدة قد خرج معها. وأكثر من ذلك عندما تكون هذه السيدة هي زوجته.

نظر إليها متظاهرا بالدهشة، لكنه صمت. كان "إيتارك" مقبلا إليه حاملا صينية محملة بالطعام والشراب، وضعها على مائدة

بالقرب من مقعده.

قال "زافييه" وهو يجلس أمام طبق عليه لحم بارد:

-المعذرة لأني أكاد أموت جوعا.

ثم بعد أن تناول قضمتين أو ثلاثا كشخص جائع حقا، توقف عن الأكل و-بنبرته المرحة المألوفة- قال:

-لأنك زوجتي؟ وليس هناك جديد.. حتى الآن لقد رفضت أن تكوني كذلك. تُرى هل غيرت من رأيك؟؟

انتصبت من مقعدها، لكنها عجزت عن النطق، متأثرة بمثل هذا الهجوم وهذه الشراسة.

عاد "زافييه" إلى تناول طعامه وكأنه لم يلمح شيئا و-في هدوء- صب لنفسه مشروبا.

شعرت "أليس" حينئذ أنها تختنق وكانت الكلمات تخرج من شفتيها بصعوبة. تمتمت أكثر من أن تكون قالت:

-إنك شخص دنيء.

أجاب:

-آه.. آه. ليس سوى ذلك.

وفجأة أصبح صوته ذا نبرة قاسية، أبعد عنه الطبق، وأصبحت الثورة بادية في عينيه:

-آه لا يا عزيزتي.. لا تتباهي بمزايا الزوجات، لأن هذا لا يناسبك إطلاقا. إنك لست زوجتي إلا اسما! وأنت تعلمين ذلك جيدا، مادمت أنت التي طالبت بذلك. إذن، إذا كان بسبب "نعم" قد نطقت بها أمام المحامي وأمام العمدة، وجب أن أحرم نفسي من أجمل متعة في الحياة.. لا، يا "أليس" لا جدال في ذلك لحظة واحدة.

وألقى إليها تلك النظرة السليطة التي يظهرها عندما يستبد به

الغضب، ويقذفها بالآتي:

-أنا لا أمنعك بالقيام بالمثل.

أحست الفتاة وكأنه صفعها.

وما القول إنها -منذ لحظة- كانت تخشى من أن تحبه!

*****

كانت "أليس" في حجرتها، تبدو -وهي في قميص النوم الموسلين الأبيض والشعر الذهبي المسترسل حتى إلى خصرها، والحزن باد في عينيها-وكأنها تخرج من أحد أشعار "ألفريد دي ميسيه". بطلة رواية عاطفية ذات القلب المحطم.

ثم ساد بينهما صمت بعد كلمات "زافييه" اللاذعة، إذ إن بعد قليل، كانت "أليس" قد نهضت، ونطقت بـ"طاب مساؤك" في برود واتجهت إلى حجرتها دون أن يبادر "زافييه" باحتجازها والآن وقد هدأت، حاولت "أليس"، بما لها من روح النزاهة، أن تفهم -إن لم يكن أن تتقبل- سلوك "زافييه". واضطرت لأن تعترف بأنه لم يكن مخطئا. إذا كانت ترفض بأن تكون زوجته بالمفهوم الذي يقصده، فله الحق -هكذا اعترفت لنفسها- في أن تكون له أكثر من صلة!

وإن كان هذا رأيها، فلماذا تأثرت إلى هذا الحد بالطريقة التي تصرف بها مع الإيطالية الجميلة؟ هكذا تساءلت مرة أخرى.

"لأنك تغارين منها- هكذا همس لها ضميرها- لأنك لم تحتملي مشاهدته مع سيدة أخرى، يرقص معها.. و.."

تمالكت نفسها. مستحيل: مهما حاولت تصديق ضميرها، فهي لا تحب هذا الرجل. لكن هل جاذبيته الجسمانية كافية لكي

تكون كفيلة بأن تجعلك تغارين منها.. غيور إلى الحد الذي يجعلك تتألمين، كما سبق وتألمت هي؟

"لا. هكذا حدثت ذاتها مرة أخرى. مستحيل! إن ما جعلني أخرج عن صوابي، كانت فظاظته، سلاطته، قساوة رجل إزاء فتيات لا يهمه إلا الحصول على رغبته منهن. كم سخر مني، وها هو قناع اللياقة الذي يضيفه إلى مظهره غير المبالي سقط كاشفا عن وجهه الحقيقي: وجه مغامر لا يبالي لا بالقانون، ولا بالتربية، ولا باللياقة حقيقة".

أخذت تمشط شعرها الطويل، وهي جالسة أسفل سريرها.. فجأة، فتح الباب -في شدة غير متوقعة- وكأنها دفعة عاصفة.

-إني أحبك، ألا تفهمين ذلك..؟ ألا تفهمين أني أحبك.. أحبك بقوة؟

أخذ "زافييه" يتجول بالطول وبالعرض مثل وحش في قفصه، ووجهه الثائر، كان يزيد من هذا الإحساس.

نظرت إليه "أليس" دهشة. ها هو بعد أن دخل إلى حجرتها دون أن يقرع الباب، بهذا العنف الذي جعل "يوبو" ينبح، معلنا لها حبه.

إعلان لم يسبق لها الاستماع إليه. إذن. ما هي لعبته الجديدة؟ وأقل من ذلك بعد أحداث الأربع والعشرين ساعة الأخيرة.

انتصبت أمامه دون أن تتحقق إلى أي حد من الممكن أن تحرك عواطف شاب، بما لها من جمال.

قالت:

-لو كنت أخبرتني بما تقوله لي الآن أول أمس لكنت سأصدقك..

ثم أسرعت بإضافة الآتي: وكان لن يغير شيئا في علاقاتنا!

لكن، بعد ما حدث، وبعد أن أخبرتني بأنك قضيت ليلتك مع هذه الـ"أنجيلينا"، لابد أن أكون على قدر من السذاجة حتى أصدقك.

هز كتفيه.

-بالضبط إنها سذاجتك التي تجعلك غير قادرة على الفهم. أي سيدة -وأنا أقول سيدة وليست فتاة- تفهم لماذا تصرفت على هذا النحو.

ثم في هدوء أكثر، أضاف:

-إنك فعلا يا "أليس" تجعلينني مجنونا. و-أثناء ما كان يتكلم، كان يتحقق أكثر فأكثر بأن لها وجها لا ينسى، وجه سوف يلاحقه في أحلامه حتى آخر حياته- ألا تفهمين ذلك؟ هكذا استطرد. إذن، يلزمني مخرج أو متنفس إذا كنت لا أرغب في الوصول إلى حد البلاهة..

فكان دورها في القول بنبرة ساخرة:

-وهذا المتنفس -كما تقول- كان الكونتيسة "جرازياني" إذن من الممكن أن يقال إنها أتت في الوقت المناسب.

استطرد وقد بدا الغضب في صوته:

-لقد طلبت منك أن ترقصي معي وأنت التي رفضت. من أجل ذلك رقصت معها. نعم من جانبك كنت ستدفعينني إلى عدم الذهاب إليها لدعوتها إلى الرقص.

ربما كان ذلك صحيحا؟

ثم كف عن المشي، استند إلى قطعة أثاث و-مغلقا عينيه، وقد بدا على وجهه الارتباك- تمتم:

- لو علمت إلى أي مدى أحبك. كنت قد أقسمت بألا أفصح

لك بذلك، وإذا كنت قد أقسمت فهذا لأني عجزت عن الاحتمال.

شعرت الفتاة بأنها بدأت تنثني. ما الذي يثبت أنه غير صادق؟

وما الذي يثبت أنه لا يقوم بمسرحية رهيبة؟

الفصل الثالث عشر

قبل أن تجد الوقت لكي تدفعه، أخذها بين ذراعيه. استسلمت "أليس" للحظة قصيرة، ثم تغلبت إرادتها، تجمدت.

ولما شعرت بأنها سوف تميل إليه، فزعت: لا، لن تخضع لهذا الرجل الذي ربما كان السفاح الذي يسعى إلى قتلها؟ لهذا الرجل الذي كان في الليلة الماضية قد احتضن فتاة أخرى وأحبها، كما أراد أن يحب "أليس" هذا المساء. في كل ليلة امرأة تختلف عن الأخرى.. وهذا إذن تعبيره عن الحب.

لاشك في أنه ردد لـ"أنجيلينا" نفس كلمات الحب التي قالها لها.

إن ما لم يقدر الخوف على القيام به، قامت به الغيرة. وبكل قواها دفعت "زافييه".

حاول استمالتها مرة أخرى، لكن عندما قاومته، ضمها إليه أكثر. ولما حاولت أن تصرخ، كتم نفسها بقبلة. قبلة لم تتذوق مثلها قبل الآن.

لكن قبل فوات الأوان -كما سبق وحدث في قصر "ليبرون" -صفعته.. على يده، هذه المرة.

وتحت تأثير الألم، رفع رأسه وصاح ثائرا:

-مجرمة..

لكنه لم يدعها تنصرف.

أحست بأن حركة الدفاع هذه، كانت بعيدة عن أن تخمد الشهوة فيه، بالعكس لقد رغبها أكثر.

كانت "أليس" عاجزة عن إبعاد نظرها عن هذا الرجل -وهو مع

كل، زوجها- الذي يبدو في هذه اللحظة وكأنه يحمل حورية. أردف:

-بالتأكيد إن استخدام مخالبك هي وسيلتك الدفاعية.

كانت "أليس" على الرغم من زواجها من "زافييه" ترى فيه شخصا غريبا؛ لذلك صاحت في يأس:

-إني أمقتك.

-مقطع آخر يا "أليس" وكنت موشكة أن تقولي: أحبك. حاولت أن تدفعه بعيدا عنها، لكن ذراعيها ليسا على قدر من القوة تكفي ذلك.

حقا ما الذي يستطيع ضعفها القيام به مقابل هذه القوة. وإذا بزمجرة بالقرب من الفتاة، جعلتها تقشعر. لقد زمجر "يوبو"، لأنه شعر بأنها في خطر؛ لذلك كان مستعدا للدفاع عنها، مستعدا للموت من أجلها.

ولما عجزت عن التصرف، صاحت:

- "يوبو"، اهجم.

وكما في أفلام الرعب، رأت الكلب يهجم على "زافييه"..

كان كلب الصيد الألماني في مثل حجم وقوة الذي يعتدي عليه. وكان "زافييه" يضم يديه لحماية حلقه. لكن الحيوان كان يتفوق عليه.. ترى كم من الوقت سيتمكن من المقاومة؟

كانت المعركة القائمة بين الرجل والحيوان أشبه بمنظر الكابوس بالنسبة للفتاة. وقفت هذه الأخيرة حائرة، فزعة تنظر إلى هذا المشهد وكأنها في حلم، تعتقد أنها تتحرك ولا تتحرك، أنها تتكلم ولا تتكلم. ودام الحال على هذا الوضع بضع ثوان بدت لها وكأنها ساعات.

ثم فجأة تحققت أنها -طوعا- تعمل على خنق رجل عن طريق

كلب. ها هي أصابع "زافييه" تنزف الدماء. وأنياب الكلب على مقربة من حلقه..

حينئذ تذكرت الأمر الذي يعطيه "جوزيف" للكلب وصاحت:

-قف. "يوبو". "ستوب".

في الحال، تخلى الحيوان الكبير الأسود عن ضحيته، مستمرا في النباح، لكنه -في طاعة- أتى وجلس تحت قدمي الفتاة.

كان "زافييه" شاحبا.. غير أن وجهه كان يبدو منحوتا في صخرة من شدة قساوة ملامحه. كانت عيناه وهما خضراوان في المعتاد بلون ذهبي عندما سلطهما على الفتاة.

قال بصوت أجش:

-إنك حقا مجنونة. بعد قليل، كان كلبك سيفترسني. ولم تكن هذه المرة مداعبة أليس كذلك؟ إن ما حدث، حدث بمحض إرادتك.

ثم-وقد بدا غير مبال وكأنه لا يشعر بالم- أمسك بمنديله ووضعه على أصابعه لكي يعمل على إيقاف الدماء التي تسيل منها.

-مع كل أنا لست متحاملا على الكلب، إنما عليك لأنك أنت التي دفعت به إلي. وهو غير مسؤول عن تصرفاتك. كل ما قام به هو أنه أطاعك.

وإذ ارتبكت، أيقنت "أليس" الآن أنها تسببت في خلق ماساة، لم تكن تتوقعها.. من شدة فزعها كانت لا تحتمل نظرات "زافييه" لها.

أردف "زافييه" بنبرة ازدراء:

-وما القول بأني كنت معترفا لك بـ..

ولم يكمل كلماته، اتجه نحو الباب، لكن قبل أن يفتحه، التفت إلى "أليس". وأضاف في برود:

-لا تتوقعي مشاهدتي لا غدا ولا الأيام التالية، سأذهب بحثا عن زوجة أكثر حنانا منك، من تعرف كيف تضمد لي جراحي!

*****

ما الذي عملته؟ كانت ترغب في الدفع بـ"زافييه" بين ذراعي هذه الكونتيسة التي تكرهها، لم يكن في مقدورها التصرف على نحو أفضل من ذلك.

وإذا بصوت موتور يجعلها تسرع إلى النافذة.. إنها سفينة مضاءة بكل أنوارها تتجه في الأفق.

لقد انصرف "زافييه" لكي يلحق بـ"انجيلينا".

شعرت "أليس" وكان يدا من حديد تقبض على قلبها، وتجعله يعتصر. هل قال لها الحقيقة عندما نطق بهذه الكلمة التي قد تحتوي على سعادة الدنيا متجمعة: أحبك؟

ولو كانت حقيقة؟ لو كانت الحوادث التي لحقت بها ترجع إلى الصدفة؟ ولو كان "زافييه" يحبها فعلا؟

بكت. ها هي فقدته نهائيا، بعد تصرفاتها هذه.

لأنها-وهي لا تستطيع إخفاءه أكثر من ذلك مهما كان السبب الذي دفعها إلى قبول هذا الإرث، إلى احتمال هذا الزواج الشكلي، وحتى لو كان هو الذي حاول اغتيالها.. فهي تحبه!

لقد فهمت ذلك من خلال هذه السهرة المأساوية. لقد كان "زافييه" على حق، أكثر مما كانت تعتقد عندما قال لها إنه ينقصها بعض الحروف لكي تنطق بـ"إني أكرهك" لكي يجعل منها إني

أحبك، وكان لابد للفتاة أن تجمع كل إرادتها لكي لا تنطق بها.

لقد كانت صرخة الحقد في الحقيقة، صرخة حب.

وكان "يوبو" آخر وسيلة للدفاع عن هذا الحب الذي كانت ترفض قبوله في داخلها.

لكنه كان هو أيضا الذي كشف لها عن ذلك: عندما شاهدت أنياب الكلب الألماني على مقربة من عنق "زافييه"، حينئذ كان الخوف الذي شعرت به -أكثر من أي ملاطفة- جعلها تفهم أن الارتباك الذي تشعر به لم يكن مجرد حساسية لأدنى إثارة.. والآن، لقد فقدت "زافييه". ليس لها أي أمل تحتفظ به، لن يغفر لها أبدا كونها دفعت بالكلب عليه.

هل ستراه؟ هذا على الأقل ما تتمناه.

*****

ما إن انتهت "أليس" من تناول وجبة الغداء-أو على الأصح من ذلك لقد انتهى "يوبو" من الشبع بوجبة سيدته- إذا بـ"إيتارك" يظهر، حاملا بيده إبريق القهوة النحاسي الذي يعد فيه القهوة التركية التي يتناولها في الغداء: بن محوج ذو رائحة ذكية وطعم لذيذ.

كان "زافييه" بحركات واضحة متجها نحو قاربه -لأنه كان قد انصرف بالقارب الذي استأجره- يحاول أن يدلي بمعلومة إلى الفتاة. حاولت "أليس" العمل على الهرب من أفكارها الحزينة، وهذا بمحاولتها فهم ما يحاول "إيتارك" أن يفهمه إياها، وفجاة فهمت: أنه يوم الثلاثاء، ومن عادة اليوناني أن يسافر إلى "أثينا" كل يوم ثلاثاء من أجل مشتريات الأسبوع. ويستفيد من هذه

الفرصة لكي يرقص ولا يعود قبل الثالثة أو الرابعة صباحا.

هذا ما كان يحاول أن يفسره لها. أشارت له بما يفيد بنعم وبأنها موافقة.

نظر إليها دهشا، يائسا، استنتجت أنها -وقد أسفت لذلك- أشارت بـ"نعم" على الطريقة الأوروبية. تذكرت "زافييه" وهو يشرح لها هذه الإشارات. كانت في ذلك اليوم قد ظنت أنه يكذب.. ومع ذلك، كان يقول الحقيقة.

فما كان منها إلا أن هزت رأسها بشدة من اليسار إلى اليمين فبدت ابتسامة مشرقة على وجه "إيتارك". ثم بعد ربع الساعة -وكانت قد انتهت من غسل الأواني وتبديل ملابسها -ظهر "إيتارك" مرة أخرى. قام بتحية الفتاة بإشارة من يده قبل أن يقفز في القارب.

وما هي إلا بضع دقائق وكان الأخير قد تعمق نحو "أثينا". الآن "أليس" بمفردها على الجزيرة الصغيرة، لكن لا يهمها ذلك بكثير. بل بالعكس، كان ذلك بمثابة تهدئة لها. لن تتعرض إلى مخاطر مع "يوبو": كان قد أثبت ذلك. ومع ذلك أليست بعد الأحداث التي مضت -وهي بمفردها محمية، أكثر من وجودها مع هذين الرجلين اللذين لا تعرف عنهما شيئا؟

كان "زافييه" ضامنا لـ"إيتارك"، لكن لو كان هو الذي يحركه؟ كان يبدو أنهما -أي الرجلان- متفاهمان.

أبدت ابتسامة حزينة وكررت لنفسها للمرة العاشرة: ربما أني أحب هذا الشاب الذي يرغب في قتلي.

*****

وفي المساء، لم تتمكن "أليس" من لمس الصينية على الرغم من أن ما عليها الذي أعده "إيتارك" قبل انصرافه كان شهيا. كانت قد قامت بنزهة قصيرة حول المنزل ومعها الكلب، وهو كظلها لا يفارقها.. كان "يوبو" يبدو قلقا وكان مستمرا في الزمجرة. لقد سبق لها سماعه يزمجر بهذه الطريقة، لكن متى؟

أخذ الكلب يتشمم -رافعا أنفه- رائحة لا يستطيع الإنسان أن يدركها.. زمجر من جديد، حينئذ تذكرت "أليس": كان قد قام بهذه الحركة أثناء رحلتهما الأولى، عندما قابلت الراعي المسن مع قطيعه الهزيل. لاشك في أنه كان مع خرافه في هذه الأنحاء. ولا شك في أنها رائحتهم التي يشتمها كلب الحراسة الألماني.

بدأت النجوم تظهر الواحدة بعد الأخرى في السماء حيث بدأ القمر يصعد ببطء.

"ساعود وأرقد ومعي كتاب -هكذا فكرت "أليس". وإن لم أجد للنعاس سبيلا، ساتناول منوما."

كانت منهكة بعد هاتين الليلتين الساهرتين وبعد المشهد المفزع الذي كان بينها وبين "زافييه" في المساء.

ولما كانت نفس الأسئلة تلاحقها، كانت تنتهي بطنين دائم في ذهنها: متى كذب "زافييه"؟

هل هو الذي دفعني لكي أسقط؟ لأنها كانت مقتنعة بأنها دُفعت.

لماذا قال لي إنه يحبني؟

وكان أكثر الأسئلة إثارة للحزن: ماذا سيكون مصيري؟ هل انتهت حياتها هكذا في عامها التاسع عشر على نحو يائس؟

*****

رقدت "أليس" والشيش مغلق لكي لا يتخلل نور القمر إلى الحجرة ويضايقها. حاولت أن تنام.

بدأت تنعس، عندما أيقظتها حيلة غريبة من الكلب. أخذ "يوبو" يسير بلا توقف حول الغرفة، يخربش على الباب ويئن.

اعتقدت الفتاة أنه في حاجة إلى الخروج، فأضاءت مصباح السرير وهي تتنهد.

فتحت الباب.

-هيا اخرج، اقض حاجتك، وارجع بسرعة.

لكن الكلب لم يستجب لها، بل ظل ملازما للحجرة لا يغادرها. حول رأسه نحو سيدته، ثم إلى الخارج. فهمت أنها دعوة، وهي تعني بلغة الكلاب:

"تعالي، تنزهي معي."

-آه لا يا "يوبو" -هكذا قالت وقد كانت في أقصى درجات التعب والضيق، الوقت غير مناسب.. أعلم أننا رقدنا منذ فترة طويلة، لكنني متعبة جدا، عن نفسي لن أخرج.

قام الكلب ببضع خطوات مترددة، خارج الحجرة، توقف لكي يرى إذا كانت سيدته تتبعه، ثم -عندما رأى أنها مازالت جامدة- عاد وهو يتنهد ورقد أسفل السرير.

لكن النعاس كان قد فارق جفون الفتاة.

في ضيقها، تناولت كتابها، حاولت الاندماج في القراءة، آملة أن تنام بعد تصفحها بعض الصفحات. غير أن ذلك لم يكن ممكنا إذ إن الكلب كان لا يكف عن الحركة.

انتقلت عصبية الكلب إلى الفتاة التي رغبت في التوجه إلى الشرفة لكي ترى إذا كان هناك شخص يختبئ فيها. لكن في اللحظة التي تأهبت فيها لفتح الشيش، اعتراها خوف شديد لأن

"يوبو" كان مواصلا أنينه بأكثر قوة؛ لذلك لم تجرؤ على فتح النافذة.

ربما أن هناك -في الخارج- رجلا يدور حول المنزل.. "زافييه" -دون أن تسمعه- هل عاد؟. لقد بدا لها عندما رقدت سماع صوت محرك قارب.. لكن كثيرا ما كان يحدث ذلك، أي أنه يبدو لها سماع صوت محرك قارب؛ لذلك لم تعر ذلك اهتماما لأن ذلك.. كثيرا ما يحدث.

لو كان أحد الأشخاص الذين يعرفهم "يوبو" لزمجر وهز ذيله. غير أنه حاليا في حالة توتر لم يسبق لها مشاهدته عليها.

وفجأة شعرت "أليس" برائحة خفيفة. شمتها.. إنها رائحة خشب يحترق كما يحدث في الريف عندما يعملون على حرق الأعشاب والأغصان الجافة.

"قد يكون الراعي المسن-هكذا فكرت الفتاة في شيء من الاطمئنان. إني لم أخطئ، لابد أنه بالقرب من المنزل، يقوم بإشعال النار لطهي وجبة عشائه. لا شك إذن في أنه هو من يشتمّه "يوبو"، ومع ذلك هذا لا يفسر حالة الإثارة التي تبدو على الكلب.

سمعت بعد ذلك أصوات طقطقة في كل المنزل، بينما تزداد رائحة الحريق. ما الذي يحدث؟ نزلت الفتاة من سريرها مسرعة، يجب أن تتوجه لمعرفة السبب.. لابد أن هناك شيئا غير طبيعي.

أطلق "يوبو".. صرخة طويلة و-بكل قواه- اندفع إلى الباب لكي يفتحه. ثم -لما لم يتمكن من ذلك- جلس أمامه وأخذ يعوي بقوة. في نفس اللحظة أطفئ النور، لقد انقطع التيار الكهربائي.

تمكنت "أليس" من كتم صرخة فزع.

على الرغم من أن الشيش كان مغلقا. وعلى الرغم من أن النور مُطفأ، ظلت الحجرة مضاءة.. ولقد بدا للفتاة أنه نهار.

اقتربت من النافذة. كان لابد من أن تفتحها، لكي ترى ما يحدث في الخارج.

ثم اجتاحت الحجرة حرارة رهيبة.

واربت "أليس" الشيش: ستر من اللهب منتصب أمامها.. المنزل يحترق!

الفصل الرابع عشر

كان هذا ما يرغب "يوبو" في جعلها تفهمه.. الخطر الداهم الذي يهددهما.

احتمت "أليس" في قاع حجرتها، غير أن بعض اللهب بدأ يزحف إلى الحجرة. وقد تشتعل الحجرة بدورها خلال دقائق. وكان الكلب مازال يعوي أمام باب حجرة المعيشة. ربما يقصد أن الحريق لم يبلغ بعد هذا الجزء من المنزل، وفي وسع "أليس" أن تهرب من هناك؟

لكن كيف اندلعت هذه النيران؟ إن "أليس" لم تدخن طوال يومها، إذن لا يمكن أن يكون السبب سيجارة لم تطفأ جيدا، و-في المطبخ وهو مجهز بأدوات كهربائية، لم يترك "إيتارك" شيئا مضاء وهي على يقين بذلك: كانت ستلمح أي خطأ عندما توجهت في فترة بعد الظهر لكي تتناول زجاجة ماء من الثلاجة. أما عن المولد الكهربائي الذي يغذي المنزل فهو من هذا النوع الذي يكفل الأمان التام!

فتحت الفتاة باب حجرتها، "يوبو" اندفع قبلها ثم توقف فجأة وهو يئن: لقد اشتعل الجزء من حجرة المعيشة التي تطل عليها الحجرة التي يشغلها "زافييه". كان المنزل مشيدا بطريقة خفيفة من أجل الصيف: النصف من الحجر، والنصف من الخشب: غذاء نموذجي للنار!

شرارة صغيرة أمسكت بطرف الستر الذي-في ظرف ثانية- أصبح لهبا. لقد أصبحت الحرارة الآن غير محتملة. وقفت الفتاة جامدة من الخوف، مخدرة من هذا المشهد الرهيب.

ولم يكن في وسعها أن تهرب عن طريق الحجرات المشتركة. لأن من هذا الجانب أيضا، كان كل شيء يحترق، وإذا بصوت قوي يغطي على أنات الكلب.. "لقد انهار المطبخ." هكذا فكرت "أليس".

من أين تهرب؟ عندما وجدت "أليس" نفسها محاطة بالألسنة النارية، عاجزة عن الهرب، اعتقدت أنها سوف تهلك في هذا الحريق.. الجنائي، وهذا لا يدعو للشك!

إن المنزل لا يشتعل تلقائيا. أخيرا توصل إلى غرضه الشخص العجيب، هذا السفاح الذي تعقبها منذ وصولها إلى "زانتوس": ستموت وبالها من ميتة شنيعة!

تذكرت فجأة صوت المحرك الذي كانت سمعته، عندما دخلت للنوم: تملكها تأكيد للأمر، إنه "زافييه" -عائد خفية- هو الذي أشعل النار في الفيلا. لا يمكن أن يكون أحد غيره.

سوف تموت، مقتولة من هذا الذي تحبه، والذي تمقته في الوقت نفسه. وكانت كل هذه الأفكار تتلاحق في ذهنها سريعة مثل البرق. ولم تكن سوى بضع ثوان قد مرت منذ أن فتحت الباب.

وقفت تشاهد الألسنة النارية وهي تمسك بالأرائك، مصدرة أصواتا مشؤومة. بعد دقيقة سيأتي دورها.

أحست بأن أقزاما بشعة من الجان، مفزعة تقترب منها وتحتويها، وتمسك بها، ثم تحولها بدورها إلى شعلة. وها هي الفتاة بدأت تعجز عن التنفس إذ إن الدخان بدأ يخنقها.

غير أن نباحا من "يوبو" أعاد إليها رباطة جأشها. كان الكلب يشير إلى سيدته -عن طريق فمه- إلى فتحة في السلم. في فزعها كانت "أليس" قد نسيت: أنه هو الذي صعد إلى حجرة "إيتارك"

وإلى الشرفات التي تغطي المنزل. وعلى الطريقة اليونانية، لم يكن للمنزل سطح لكن سلسلة شرفات مرتبطة فيما بينها ببعض الدرجات.

ربما تكون النار لم تشتعل هناك. أسرعت "أليس" إلى السلم، ومن خلفها الكلب. وعندما وصلت إلى السطح، صدر عنها تنهد أشبه بالانتحاب.. وكان الظلام قد بدأ يخيم على المكان المحيط بها.. لم يكن الحريق قد وصل بعد إلى هذا المكان. غير أن السحابة السوداء كانت تحيط بالشرفات، لكن على الأقل كانت "أليس" قادرة أن تتنفس..

لم تتقدم نحوها أي شرارة -مفزعة- شريكة في اغتيالها، تعمل على قتلها.

غير أنها تحققت في نفس الوقت من أن ملجأها لا يقدم لها سوى راحة وقتية، مجرد مهلة. من أين في إمكانها أن تهرب إذن؟ أخذت تجري مثل المجنونة التي لا تدرك ما هي فاعلته، من بقعة إلى بقعة ومن شرفة إلى شرفة.. وكلها مرتفعة لا تساعدها على القفز منها، حتى لو لم تكن الألسنة النارية قد لحقت بالمنزل.

قالت في أنين:

-لابد من سلم.

ابتهلت إلى الله. فجأة سمعت كلمات مثل صوت الغراب.. مالت نحو المكان الذي سمعت منه هذا الصوت. وكان أول ما رأته هو السلم.. سلم أحضره الراعي وأسنده بكل مشقة إلى حائط مطل على خلفية المنزل، أحد الأماكن النادرة التي لم تصل إليها النيران.

وكان الرجل المسن واقفا أسفل المنزل، يقوم بحركات أشبه بالمجنون، مشيرا إلى درجات السلم، ويصرخ بصوت أجش.

www.rewity.com

فهمت أن الدخان الأسود الذي أنذره يغطي الجزيرة كلها فأتى إلى نجدتها.

لقد أُنقذت! لم يصل السلم إلى الارتفاع المناسب لها.. كانت تفصلها عنه مسافة متر تقريبا، لكن إذا انزلقت فلابد أن تصل إليه.

صاحت:

-اتبعني يا "يوبو"، اقفز. إنك تقدر على ذلك.. لم تشأ أن تترك الكلب بالمنزل لئلا يكون فريسة للنيران. غير أن الكلب الألماني، كان قد تراجع. وقف مفتوح الفم، شعره منتصب، يزمجر، عازما على ألا يغادر الشرفة.

وإذا بشرارة تظهر فجأة من ناحية البحر، قوية.. وفي انفجار رهيب سقط جزء من السطح.

-اقفز يا "يوبو". هكذا كانت الفتاة تتوسل إليه بدموع. إنك تقدر على ذلك. إنه ليس أعلى من الصخرة التي قفزت عليها، لكي تنقذني.

بعد قليل لمحت "أليس" فزعة. أن بعض النيران بدأت تأكل الدرجات الأولى.. كان عليها أن تسرع بالنزول، في غير تردد. فكرت في أن الكلب عندما يراها على الأرض، سيتغلب على مخاوفه ويلحق بها.

وفي اللحظة التي كانت "أليس" تبحث بقدمها عن درجة السلم، سمعت صوتا مدويا، آمرا:

-تعالي من هنا يا "أليس".. أنا هنا.

توقفت لحظة: إنه صوت "زافييه"..

لقد رأى أنها سوف تنقذ أراد أن يمنعها من ذلك. ها هي واثقة الآن: بانه هو الذي أشعل الحريق لكي تهلك فيه. صاحت:

-لا!

غير أن الكلب، كان قد أسرع نحو المكان، مصدر الصوت، كما أن نباحه كان يعبر عن السرور! في توازن على الشرفة، وضعت إحدى قدميها في الفراغ، ترددت "أليس". عاد الكلب نحوها في أنين، قبل العودة نحو صوت "زافييه".

صاح هذا الأخير:

- "أليس"، أنا لا أستطيع الصعود إلى أعلى، لكن ليس أمامنا سوى ثلاثة أمتار، علينا عبورها. عليك بالقفز على ذراعي، لا تخافي شيئا!

وكانت تتحسس بقدمها درجة السلم.. لا لن تستمع إلى صوت من أراد قتلها.

لكن أين هذا السلم؟ تمالكت نفسها، تواجدت على الشرفة ونظرت لكي تحدد أين توجد درجة السلم التي لا تجدها قدمها.

لم يكن هنا سلم. ها هو الراعي المسن يقوم بحركات أشبه بحركات ساحر يرقص ويغني عليه وهو ملقى على الأرض. فهمت "أليس" أنه مجنون. لو كانت وضعت ثقتها به، لسقطت في الهاوية عندما سُحب السلم.

ومن الطرف الآخر كان "زافييه" لا يكف عن الصياح:

-بسرعة يا "أليس" بسرعة.. إني أحبك.

حينئذ أسرعت نحو الصوت في غير تردد.

على بعد ثلاثة أمتار فقط، على شرفة صغيرة لم يسبق لها مشاهدتها، كان "زافييه" هناك. عندما رآها قال في هدوء:

-هناك فتحة، يمكننا العبور من خلالها.. لكن خلال دقيقة ستصل إليها النيران. إن لم تثقي بي، فسنموت كلانا هنا، لأني لا أرغب في الحياة بدونك.

ومد لها ذراعيه.. فالقت بنفسها عليهما.

*****

لم تسمع في بادئ الأمر سوى صوت البحر تحت قدميها.. ثم شعرت بشيء ما دافئ يلمس أصابعها. تمتمت: "يوبو". فتحت عينيها لقد وضع الكلب فمه في يدها. قالت مطمئنة:

-لقد قفز.

-وفي نفس الوقت الذي قفزت فيه يا "أليس"، وهو لن يتركك أبدا.

حينئذ شاهدت "زافييه" إلى جانبها على الشاطئ. ولأول مرة لم تخشه: لقد أنقذ حياتها. وهو أفضل دليل في وسعه أن يمنحها إياه عن صدق وفائه وبراءته. استطردت:

-أتذكر أني قفزت.. وأنت كنت تمد لي ذراعيك.. وبعد ذلك.. ولا شيء بعد ذلك..

-لأنه غُشي عليك في نفس الوقت. لحسن الحظ أني تمكنت من المرور. لو أنك انتظرت ثواني، لفات الأوان.

كان الشاطئ مضاء بنور متوتر، إنها الأضواء الأخيرة للحريق. لقد شاهدت -على ضوئها- حروقا على بنطلون وقميص الشاب.. مدت يدها في تردد إلى وجه "زافييه" وتمتمت:

-لقد احترق شعرك أيضا.

وحينئذ فهمت أنه اضطر بالتأكيد إلى العبور وسط ألسنة النار لكي ينقذها.

قال ضاحكا:

-نعم، وأعتقد أنك ملزمة بتصفيف شعري بالفرشاة.

سألته في أسى وكلها ندم:

-هل أصبت بحروق في أماكن أخرى؟

طمأنها:

-لا تقلقي، لا خطورة في ذلك. إنها ملابسي وشعري فقط.

كانت "أليس" تتكلم معه دون أن تنظر إليه:

-أطلب منك العفو يا "زافييه".

-العفو عن أي شيء؟

وكان صوته يحمل نبرات الدهشة. اعترفت في خجل:

-لقد شككت فيك، باعتقادي أنك كنت ترغب في اغتيالي.

انتفض في الحال، التفت نحوها وسألها:

-من أجل ذلك كنت ترفضين أن تقفزي؟

تمتمت بـ"نعم" تكاد تكون غير مسموعة. ترى ماذا سيكون رد الفعل عند الشاب بعد هذا الاعتراف؟

لكنه أجاب -و.. السرور باد في صوته-:

-تبارك الله. ظننتك تكرهينني إلى حد أنك كنت تفضلين الموت عن تواجدك بين ذراعي.

ثم أضاف:

-لكنك لم تخطئي في تفكيرك ذلك يا "أليس".. عندما فكرت في أن هناك من يسعى إلى اغتيالك، فلقد كانت حقيقة.

وكانت هذه اللحظة هي التي جعلت الفتاة تدهش بدورها. سألت فزعة:

-من هو؟

وفي نفس اللحظة رأت اليوناني العجوز الذي كان يرقص على السلم، ممددا على الأرض.

-الراعي! لماذا؟ إني لا أعرفه ولم أسئ إليه.

-لا. بل لأنه يكره كل النساء. لأن زوجته تركته.. منذ سنوات، وبذلك لم يتمكن من احتمال هذه الصدمة لأنه قليل الإدراك. ورويدا رويدا عملت الوحدة على جعله مجنونا. لكنه كان إنسانا مسالما لا يؤذي أحدا. غير أنه عندما رآك -أنت- سيدة، ملأ الحقد قلبه ضد من خدعته وبذلك أصبح خطيرا. وربما -مع إدراكه المحدود- يكون قد اعتبرك هي. على أي حال، لقد أراد أن ينتقم منها في شخصك.

-وهو أيضا الذي أسقط هذا الجزء من العمود؟

-نعم، من المؤكد.. كما أنه هو أيضا الذي دفعك -دون أن تلمحيه- من أعلى الصخرة. وكذلك -عندما وجدك بمفردك بعد رحيلنا "إيتارك" وأنا -هو الذي أشعل النار في المنزل!

وهكذا كان كل شيء حقيقة، ومع ذلك كان كل شيء خطأ، مادام أن "زافييه" لا شأن له في كل هذه الأمور. كم خجلت من نفسها. غير أن الشاب. استمر في حديثه:

-عندما أخبرتني بأن هناك من دفعك من أعلى الصخرة، كنت مصراً على أنها ليست حقيقة. وكنت حينئذ -لأني أعرف قصته- قد بدأت أفكر في الراعي، لكني آثرت ألا أخبرك بذلك حتى لا أبعث بالقلق في نفسك.

كما أنك مكثت بالمنزل، وفي هذه الأثناء لم يكن هناك ما يخشى منه. وحدث في هذا اليوم أني حصلت على الدليل. يوم أن ظننت أن قوائم الكوبري العائم متآكلة. لأن "إيتارك" أراني أنها ليست متآكلة إنما مقطوعة بمنشار.

وأضاف في جدية:

-الآن يجب علي أن أسالك العفو. يا "أليس" كان لا ينبغي لي أن أتركك، لكني كنت وقتئذ خارجا عن صوابي.

وفي يأس ومرارة، أضاف:

-مجنون، أنا أيضا.. مجنون بسبب زوجتي.. مثل هذا العجوز.

وضعت يدها على يد "زافييه". هل تجرؤ أن تقول له إنها هي أيضا تحبه؟

-وكيف حدث أنك فكرت في العودة؟

-فجأة، في "أثينا"، فكرت في أنه يوم الثلاثاء. وبما أن -مثل كل أيام الثلاثاء- لابد من أن ينصرف "إيتارك" وأنك ستمكثين بمفردك مع هذا المجنون، تخليت عن كل شيء يا "أليس".

فكرت في أن "كل" تعني الكونتيسة "جرازياني"، لكنها صمتت. ألم يخبرها الآن بأنها تهمه أكثر من أي سيدة أخرى؟

-قفزت في الحال في القارب. وقبل أن ألمح الجزيرة، شاهدت هذه السحابة السوداء. فهمت.. ثم واصل:

-لم أكن أدري أنه من الممكن أن يصل بنا الخوف إلى هذا الحد.. وأن نرتجف هكذا من أجل شخص آخر. وعندما وصلت ورأيت المنزل مشتعلا بالنيران.. ولمحتك -أنت- مثل الشبح أعلى هذه الألسنة النارية.. إنك تعرفين الباقي. وبدورها، حكت له ما لم يكن يعرفه: السلم المنتصب، ثم رفع في اللحظة التي كانت ستضع فيها قدمها على أولى درجاته.

قال "زافييه" مفكرا:

-لاشك في أنه رآني واستنتج أني سأنقذك. حينئذ، قام بآخر محاولة: لأنك -في حالة عدم سماعك صوتي- كنت ستضعين قدمك، ظنا منك أن السلم موجود، وبذلك تسقطين من أكثر من عشرة أمتار ارتفاعا.

قالت الفتاة:

-إني لست متحاملة عليه، إنه رجل مسكين.. ماذا سيكون مصيره؟

لم يجبها "زافييه". كان يعرف أنه لا داعي من أن يكدر "أليس" بقوله لها إن العجوز المجنون، مات تحت أنقاض المنزل الذي عمل على إشعال النار فيه.

*****

وقفا صامتين للحظة طويلة.

ها هي النار تنطفئ تدريجيا بعد أن دمرت كل شيء. والدخان أصبح يتصاعد من المبنى الذي كان من أروع المساكن، والذي أصبح حطاما.

أطلق "زافييه" زفيرا:

-يا منزلي المسكين! أنا من شيدتك بكل سرور!

-منزلك؟ -بدت الدهشة في صوت "أليس" - لكنك أخبرتني بأنه منزل أصدقائك.

-كنت لا أرغب في أن تعلمي لماذا تزوجتك؟

قالت وقد عاودتها مرارة الأيام الماضية:

-ومع ذلك كان في منتهى البساطة: من أجل ثلاثمائة مليون؛ لذلك اعتقدت أنك كنت تريد أن.. أن

أوقفها في سمو:

-ليتنا لا نذكر الماضي يا "أليس". بالنسبة لك، لقد تزوجت من أجل ثلاثمائة مليون -أعتقد حاليا أن هنا سرا في ذلك..

تمتمت:

-والدتي. كانت الوسيلة الوحيدة لإنقاذها. لكن أنت يا

"زافييه" إن لم يكن من أجل المال، إذن لماذا وافقت؟

مرة أخرى ساد الصمت، ثم وكأنه كان لابد وأن تحسم الأمور في هذه الليلة، أردف "زافييه":

-إني ثري، يا صغيرتي، على قدر كبير من الثراء. ولم أكن في حاجة إلى هذا الإرث بتاتا. لقد أخبرتك بأني مزارع في "أستراليا"، وهي حقيقة، لكنك لم تصدقي هذا البيان: إن مزارع "أستراليا" تختلف عن مزارع "فرنسا"، إنها أملاك شاسعة. إني أعمل على تربية الغجول.. هذا بالإضافة إلى أني -صدقيني يا "أليس" -لا أعلم العدد الذي أمتلكه.

ومرة أخرى، سكت، ثم بصوت تغيرت نبرته، تعرفت إليه بصعوبة، واصل:

-إذا كنت قد قبلت هذا الإرث العجيب، فلم يكن ذلك من أجل المال، إنما بدافع الحب. عندما رأيتك أحببتك من أول نظرة. لم أكن أؤمن بذلك من قبل ومع ذلك..

في الحال أصبح كل اهتمامي منحصرا فيك.. ولكي أكسبك، لم تكن أمامي سوى وسيلة واحدة -على الأقل كان هذا اعتقادي- وضع العربة قبل العجول، أن أتزوجك أولا.. وبعد ذلك أسعى إلى جعلك تحبينني. وحتى ذلك الحين، كنت ناجحا في كل شيء. ومرة أخرى، وثقت بنجمي. تنهد:

-و.. رسبت.

وإذا بضحكة رنانة تسمع بالقرب منه.

إنها "أليس" تقول:

-آه لا يا "زافييه"، إنك لم ترسب -إني أحبك، أنا أيضا أحبك كثيرا.. ثم أبدى الصوت الوديع نبرة غضب، ليضيف: لكنك لن ترى فيما بعد هذه الكونتيسة "جرازياني" البشعة،

أليس كذلك ؟

مال عليها:

-آه. يا حبي، أهي حقيقة؟

وفي هذه المرة استسلمت الفتاة لشفتي "زافييه".

ثم تمتم "زافييه":

-الآن يا حبي، أرغب في أن تكوني حقا زوجتي!

أجابت وهي تلهث:

-نعم!

تمّت بعون الله

WWW.REWITY.COM
مـــر مـــوريـــة